أثر مبدأ الالتزام في هاشميات الكميت بن زيد الأسدي

د / عزة محمد محمد أبوالنجاة
أستاذ الأدب والنقد العربي المساعد بكلية البنات جامعة عين شمس

مقدمة

أ- **أسباب الدراسة وأهدافها .**

يحتاج الباحث – من آن لآخر – أن ينهل من معين الأدب العربي القديم تذكيرا لنفسه بحقب مجيدة حين كان الشعر ديوان العرب ، ولم يكن لهم علم أصح منه ، كما جاء في الأقوال المأثورة . ولكنه حين يختار من الأدب القديم موضوعا فإن اختياره تحدده دوافع معينة ومنها اقتضاء الأحداث الجديدة من سياسية واجتماعية لذلك ، فكان هذا الاختيار لشاعر من عصور الاحتجاج اللغوي – رغم تحفظ بعض العلماء كالأصمعي على ذلك – ولشاعر من شعراء الشيعة المرموقين الذين دافعوا عن المذهب الزيدي حتى قتل في سبيله .

فما تلك الأحداث التي تقتضي الآن بعث شعر الكميت بن زيد الأسدي ؟

لاشك أن الثورات التي اجتاحت العالم العربي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين تملي على ضمير الباحث اختيار شاعر ثوري نافح عن دعوته حتى الموت . ولاشك أيضا أن ذلك الاختيار يضع في الاعتبار ما أحدثته الثورات المتلاحقة من تغيير في التركيبة السكانية لبعض المناطق ، أو نزوح بعض الجماعات التي تعتنق مذهبا مغايرا لأهل البلاد مثلما حدث مع أهل العراق الذين وفدت جماعات منهم إلى مصر ومارست طقوسها في بعض المناطق كمنطقة الحسين . وتزامن نشاط بعض القنوات الشيعية كقناة " صوت العترة " ، و" المعارف " مع وجود هذه الجماعات ؛ فكان لزاما التوقف عند شاعر ثوريٍّ اعتنق مذهبا معتدلا التزم به حتى مماته ، وفي استعراض ذلك الشعر ما يظهر الاختلاف بين مذهبه والمذاهب الأخرى الموجودة على الساحة .

إن ذلك الرجل الذي يُعْنى البحث بدراسته – اليوم – شاعر قدير شأنه شأن كل شعراء الدولة الأموية ؛ إذ مثلت أشعاره عصرا من عصور الاحتجاج اللغوي من حيث الفصاحة والجزالة والشاهد اللغوي القويم . ومن جانب آخر كان الكميت شاعرا من شعراء الشيعة الزيدية المرموقين ، ولانغالي إذا قلنا إنه شاعر الزيدية الوحيد الذي دافع عن مبادئها وأسسها دفاعا منطقيا عريضا ؛ وبذلك

يكون قد حقق للزيدية مكانة هائلة في التاريخ يسعفنا شعره المنظوم بمالايسعفنا به حديث المؤرخين حين يختلفون حول الزيدية ومعتقداتها .

من هنا جاءت قيمة شعره ؛ فهووثيقة تاريخية للمذهب الشيعي الزيدي الذي احتج له بعشرات الحجج المنطقية التي بعثها فيه المناخ الثقافي في ذلك الحين وهو مناخ المتكلمين من المعتزلة . فمن المعروف أن الإمام زيد بن علي بن الحسين كان معجبا بواصل بن عطاء وطريقته في الحِجَاج ؛ ومن ثم اكتسب الكميت هذا الحب وأشربه قلبه ، فسارعلى نهج المعتزلة في طريقتهم المثلى في الحجاج . ومن جانب ثان فإن الكميت يمثل منهج الالتزام في الشعر الذي عرف منذ قديم في شعر ونثر الكثير من الشعراء الذين دافعوا عن قضاياهم .

والكميت إذ يفعل كل ذلك يؤسس للمذهب الزيدي المعتدل ، ويجعل الدارس لشعره يقارن ذلك المذهب بغيره من المذاهب ؛ فهو يحب على بن أبي طالب ويرفعه إلى مكانة عالية وفي الوقت نفسه يرفض سب الشيخين : أبي بكر وعمر– رضي الله عنهما– ويرجئ حسابهما إلى الله ، وسوف يوضح البحث ذلك تفصيليا نظرية وفنا متناولا .

ولعلَّ من الأمور التي تجعل لهذا البحث قيمة مضافة إلقاءه الضوءَ الكافيَ على المذهب المعتدل الذي يبتعد عن الغلو في العقيدة والشطط فيها في وقت بدأت فيه الفرق الشيعية تكثر في بلادنا إثر التمزق الذي حدث في بلاد كانت تَعِجّ بهم ؛ وبهذا يسهم البحث في إماطة اللثام عن مذهب أفرد الكميت له حياته حتى قضى في سبيله .

ومن الأمور التي لفتت انتباه الباحثة تلك الأحداث التاريخية المهمة التي يَعِجّ بها شعر الكميت مما يعد وثيقة تاريخية لتلك الحقب التي عاشها ، ومن ذلك هجاؤه لليمن هجاءً مرّا مفتخرا بالمُضَرِّية مُحْيِيا بذلك تلك العصبية القبلية البغيضة التي حذر الإسلام منها؛ فالإسلام يساوي بين الناس من حيث الجنس واللون والعقيدة ويجمعهم على كلمة سواء .

ولعل العجب يزول حين نعلم أن الكميت فعل ذلك ليصرف شاعرًا آخر هو حكيم بن عيّاش الكلبي عن هجاء آل البيت ؛ حيث كان الأخير يهجو الهاشميين ويفضل بني أمية عليهم ؛ مما دعا الكميت إلى إنشاء قصيدته النونية الشهيرة التي اشتهرت به واشتهر بها .

وهو في كل ذلك إنما يمدنا بالوثائق الشعرية اللازمة التي تعد ضمن الوثائق التاريخية المعتد بها في ذلك التاريخ الغني بالمذاهب العقدية والفكرية .

وسوف يعتني البحث – إضافة إلى أسباب الدراسة السالفة والهدف منها بإبراز منهج البحث ، وهيكله ، وأقسامه .

ب- منهج الدراسة

هذا البحث ينتمي إلى حقل الدراسات التطبيقية التي تعتمد منهج الاستقراء ، والاستقصاء – مأأمكن ذلك – وصولا إلى نتائج سديدة ، أو على أقل تقدير قريبة من ذلك ، ومع الاستقراء والاستقصاء وصف للموضوع بشكل يوضحه دون إفراط ، ولاتفريط . وقد يكون من المفيد للباحث والقارئ معا أن يلم بالموضوع المدروس قبل الدخول في تفاصيله الفنية ؛ فذلك أدعى إلى تمكنه من ذهن الباحث والقارئ معا ، أما المدخل النقدي فهو المدخل الاجتماعي الذي يجعل الباحث يتحرى البحث عن عقيدة الشاعر(الكميت بن زيد الأسدي) بل مذهبه الزيدي ومدى التزامه بهذا المذهب ، ودفاعه عنه ، وتفوقه في ذلك حتى نَحْره على يد الأمويين ، وذلك في الجزء الأول من الدراسة . أما في الجزء الثاني فإن البحث يعنى بتتبع شعر الكميت لغويًّا وبلاغيًّا ليرى تأثير مذهب الالتزام في إجادة فنه من عدمه ، مع العناية اللازمة باستعراض آراء النقاد في هذا التقييم .

ج- هيكل البحث

ويقودنا ذلك إلى خطة هذا البحث التى تبدأ بتمهيد لازم ، ومباحث ثلاثة مهمة .

فأما **التمهيد** ففيه ثلاث نقاط مهمة هي :

1- الشيعة وفرقهم المختلفة وَفْقا لآراء العلماء الثقات .

2- تعريف بالكميت بن زيد الأسدي .

3- تعريف بهاشمياته التي اشتهر بها .

وأما المباحث الثلاثة فتجري على النحو التالي :

أولا : موضوع المدحة الهاشمية :

ويبين هذا المبحث المهم جريان شعرالكميت بن زيد الأسدي في ثلاثة اتجاهات واضحة ضمن قصائد تتميز بالوحدة العضوية ، تلك السمة التي طالما اتُّهِمَت القصيدة القديمة بأنها خالية منها . هذه الاتجاهات هي :

1- مدح آل البيت النبوي مديحا صادقا خالصا في وقت كان المديح فيه وسيلة الشعراء لنيل العطايا .

2- إثبات حق البيت النبوي في الخلافة ، وبيان الظلم الذي تعرضوا له على يد البيت الأموي .

3- هجاء الأمويين هجاءً يتسم بالعقل ، ويصمهم بالظلم مبتعدا عن الفحش .

وأما المبحث الثاني فيعالج بناء المدحة الهاشمية على النحو التالي :

ثانيا : بناء المدحة الهاشمية :

وفيه تتضح فكرة البحث وغرضه الأساس الذي يظهر في عنوانه " أثرمبدأ الالتزام في هاشميات الكميت بن زيد الأسدي " فيتناول بناء المِدْحة الهاشمية من حيث نهجها الذي سارت عليه في المطالع ، والغرض الأصلي منها ، والمعجم الشعري الذي استخدمه الكميت في المدحة ، والصورة الفنية التي ارتضاها لمعانيه في مدح آل البيت ، ويتضمن العنوانات الآتية :

- استخدام بنيتي النفي والاستفهام في المطالع الهاشمية .
- المعجم الشعري والصورة الفنية في المطالع .
- المعجم الشعري والصورة الفنية في الغرض الأساس .

ويأتي القسم الثالث من الدراسة تحت عنوان :

ثالثا :الحركة النقدية حول شعر الكميت حديثا .

وفيه تعرض الباحثة آراء النقاد المحدثين وتناقش هذه الآراء مع ذكر رأيها الخاص .
أما القسم الرابع من البحث ففيه خاتمة البحث ، وأهم نتائجه .
وبناء على ماتقدم فهذا البحث يقع في :
مقدمة موضح فيها أسباب الدراسة وأهدافها ، ومنهج البحث ، ومباحثه الثلاثة ، وخاتمته ، ثم تمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، وأخيرا ثبت بأهم المصادر والمراجع .
والله الموفق والمستعان .

أولا : تمهيد واجب

1- الشيعة وفرقهم :

ذكر الشهرستاني [1] 479هـ ، 548هـ في كتابه " **المِلَلْ والنِّحَلْ** " أن فرق الشيعة خمس هي الكيسانية ، والزيدية ، والإمامية ، والغالية ، والإثنا عشرية [2]. وتنقسم كل فرقة كبيرة منهم إلى عدد من الفرق تختلف فيما بينها في بعض الفروع ، وفي ذلك يقول :
" الشيعة هم الذين شايعوا عليًّا – رضي الله عنه – على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصًّا ، ووصيَّة ؛ إما جليّا وإما خفيّا ، واعتقدوا أن الإمامة لاتخرج من أولاده ؛ وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ، وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تُناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ؛ بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين ؛ لايجوز للرسل إغفاله ، وإهماله ، ولاتفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولّي ، والتبرّي : قولا وفعلا وعقدا إلا في حالة التقيّة .
ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ، ولهم – في تعددية الإمام – كلام وخلاف ، وهم خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية ، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنّة ، وبعضهم إلى التشبيه " [3]

والزيدية " أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم – ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة – رضي الله عنها – ولم يجوّزوا ثبوت الإمامة في غيرهم ؛ إلا أنهم جوّزوا أن يكون كل فاطميٍّ عالم زاهد شجاع سخيٍّ خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة ، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين ، رضي الله عنهما " [4]

" وزيد بن علي ..... أراد أن يحصّل الأصول ، والفروع حتى يتحلى بالعلم ؛ فتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الألثغ رأس المعتزلة ورئيسهم .... فاقتبس منه الاعتزال ، وصار أصحابه كلّهم معتزلة ، وكان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ؛ فقال : كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فُوّضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها "[5]

وقد رأى صاحب كتاب " الفَرْق بين الفِرَق " [6] أن الزيدية ، والإمامية معدودون في فرق الأمة " [7] وقد رفض المذهبَ المعتدلَ ثلاثٌ فرق منهم ، وهم : الجارودية ، والسليمانية ، والبُتْرِيَّة " وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه ، وكان ذلك في زمن هشام بن عبد الملك "[8]

2- تعريف بالكميت بن زيد الأسدي .

وأما الكُمَيْت بن زيد فهو من أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وفي ترجمته التي أوردها الدكتور شوقي ضيف أنه " الكميت بن زيد من بني أسد ، ولد سنة 60 للهجرة ، وعاش حتى 126 هـ ، فهو شاعر حضَري لم ينشأ في البادية ، ثم انتقل إلى الكوفة أو البصرة كبعض شعراء عصره من مثل : الفرزدق ، وجرير ، وذي الرُّمَّة ، بل نشأ في الحاضرة ، وعاش فيها حياته . وطبيعي أن يتصل بكل ماكان في الكوفة من ضروب معرفة وثقافة ، وكلّ من كتبوا عنه يشيدون بمعرفته بأنساب العرب وأيّامها ويقولون إنه كان فقيه الشيعة هناك " [9]

وقد ذكرابن قتيبة أنه "هو الكميت بن زيد من بني أسد ويُكْنَى أبا المستهل وكان معلّما " [10]

وفي " المُوَشّح "للمرزباني ذكرُ سنة مولده ووفاته ونسبه ، فهو " الكميت بن خنيس الأسدي ، شاعر الهاشميين ، اشتهر في العصر الأموي ، وكان عالما بآداب العرب ، ولغاتها ، وأخبارها وأنسابها ، ثقة في علمه، أشهر شعره الهاشميات وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين " [11]

ويذكر صاحب الموشح قول أبي عبيدة " لو لم يكن لبني أسد مَنْقَبَة غير الكميت لكفاهم "[12]

وقال أبو عِكْرمة الضّبّي " لولا شعر الكميت ماكان للغة ترجمان " [13]

ومن أخباره أنه " كان بينه وبين الطِّرِمَّاح من المودة والمخالطة مالم يكن بين اثنين ، على تباعد مابينهما في الدين والرأي ؛ لأن الكميت كان رافضيا ، وكان الطرماح خارجيا صُفْريّا ، وكان الكميت عدنانيا عصبيا ، وكان الطّرِمَّاح قحطانيا عصبيا ، وكان الكميت متعصبا لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام " [14]

والحقيقة أن الكميت لم يكن رافضيًّا ؛ فالمعروف أن الرافضة هم من رفضوا اعتراف زيد بن علي بن الحسين بإمامة المفضول مع وجود الأفضل .

وكان بعض العلماء كالأصمعي لايعدُّون شعرَه حجةً ؛ لأنه مُوَلّد ، ففي الموشح عن الأصمعي " ليس الكميت بن زيد بحجة ؛ لأن الكميت كان من أهل الكوفة ، فتعلم الغريب ، وروى الشعر ، وكان معلّما ، فلايكون مثل أهل البدو " [15]

وعن الأصمعي في المصدر نفسه " الكميت تعلَّم النحو ، وليس بحجة ، وكذلك الطِّرِمَّاح ، وكانا يقولان ماقد سمعاه ولايفهمانه " [16]

وقد أخذ عليه صاحب الموشح مآخذ لغوية [17] ليس هنا محل لذكرها .

وفي البيان والتبيين أن الكميت هو أحد ثلاثة كلّهم من بني أسد بن خزيمة " وأشهرهم الكميت بن زيد ، وكان مكثرا جدا يتعمَّل لإدخال الغريب في شعره ، وله في أهل البيت الأشعار المشهورة ، وهي أجود شعره ، وهذا الكميت هو الكميت الأصغر " [18]

ويقول عنه الجاحظ : " ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح ، وكان الكميت عدنانيا عصبيا ، وكان الطرماح خارجيا من الصُفْرِيّة ، وكان الكميت شيعيا من الغالية ، وكان الطرماح

يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة مالم يكن بين نَفْسَين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولاجفوة ولاإعراض ولاشيء مما تدعو هذه الخصال إليه ، ولم ير الناس مثلهما إلا ماذكروا من حال عبد الله بن يزيد الإباضي وهشام بن الحكم الرافضي ، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة " [19]

3- تعريف بالقصائد الهاشميات :

هاشميات الكميت قصائده التي كتبها في حب آل البيت ، والانتصار لحقهم في الخلافة كما هو معروف . وقد قام بتفسيرها : أبو رياش أحمد بن إبراهيم القيسي ، وحققها الدكتور داود سلوم ، الأستاذ بكلية الآداب – جامعة بغداد ، وزميله الدكتور نوري حمودي القيسي الأستاذ بالكلية ذاتها وبالجامعة عينها ، في طبعة نشرتها دار النهضة العربية ببيروت – لبنان عام 1986

وقد اعتمد المحققان على عدد من النسخ المتوافرة في أوربا والشرق ، وأثبتا في مقدمة الطبعة التي تحمل اسميهما الجهد الكبير الذي قاما به في سبيل تنقية الهاشميات من التحريف ، والتشويه وتسجيل كل ذلك في هوامش الطبعة حتى يتسنى للباحث المَعْنِيّ بدراسة الهاشميات الوصول إلى المعنى المراد [20]

وقد أثنيا على الشارح أبي رياش وأثبتا له حقَّه في شرح الهاشميات فهو " محقق من علماء القرن الرابع الهجري ومن أفاضل أهل اللغة والنحو ، وقد أظهر قدرة عجيبة وعلما جما في شرح لغة النص ومعانيه . وهو أبو رياش أحمد بن إبراهيم ، أو أحمد بن أبي هاشم القيسي أو الشيباني أو اليمامي . وقد توفي 339هـ [21].

وفيما يلي عرض للمباحث الثلاثة التي يشتمل عليها البحث :

أولا : المدحة النبوية في الهاشميات :

انتظم شعر المدحة النبوية في الهاشميات في سياقات ثلاثة لاتخطئها العين هي :

1- المديح العاطفي الخالص لآل البيت النبوي الشريف .

2- المديح المشوب بالحجاج العقلي انتصارا لفكرة الإمامة في البيت النبوي .

3- المديح المشوب بهجاء بني أمية وتسفيه أفعالهم .

تأرجح شعر المِدْحة النبوية لآل البيت عند الكميت بن زيد بين شعر عاطفي صرف تغذيه عاطفة دينية مشبوبة و شعر وثائقي يعتمد على الحجة والبرهان في إثبات حق البيت النبوي في الخلافة . ولكل منهما وجهته التعبيرية المتميزة ، فعلى حين كثُرت في النوع الأول ألفاظ الغرام ، والهوى والحب مما يكثر في شعر الغزليين ، والصور الفنية السهلة الفهم ، كثر في النوع الثاني القياس المنطقي ، والحجة ، والبرهان في شعر مباشر يخاطب العقل ، ويظهر فيه علم الشاعر بالأنساب ، والأعلام ، وأيام العرب ، والحوادث الكثيرة . ويبدو الجانب الوثائقي لشعره واضحا . ولنقترب خطوة من هاشمياته الثماني لنرى كيف فاضت عاطفته الدينية .

1- : المدحة العاطفية الخالصة :

يطالعنا الكميت من بداية هاشمياته ببثِّ هواه الخالص لآل البيت ، وهو الهوى الذي لم يَشُبْه حب النساء ، ولاالوقوف على الديار . يقول الكميت في هاشميته الأولى :

مَن لِقلب مُتيّم مُستهــامِ غيرِ ما صَبْوةٍ ولاأحــلامِ
طارقاتٍ ولاادّكار غـوانٍ واضحاتِ الخدودِ كالآرامِ
بل هَوَايَ الذي أُجِنُّ وأُبدي لبني هاشمٍ فروعِ الأ نـامِ (22)

فكما نرى تأتي ألفاظ الهُيام ، والاستعباد ، والصبوة ، والهوى ، وكلّها من مجال الغزل لتغزو هذا الشعر غزوا ، وتستدعي مثيرها في الشعر وهو الحور الموصوفات بأنهن " واضحات الخدود " وبأنهن " غوان " ليقول إن هواه المشبوب ليس موجها للحسان بل يوجه لبني هاشم المختارين من سادة الناس ، وصفوتهم .

وهو في هواه يجري على طريقة الشعراء العذريين الذين يخفون حبهم ، وهذا يوافق مذهبه في التقية حين يقول " بل هواي الذي أجن ، وأبدي " فهو يظهره تارة ويخفيه أخرى .

ويختم الشاعر القصيدة بعد أن علل لهذا الحب – مما سنذكره فيما بعد – بالحب ذاته الذي ارتضاه نصيبا له في هذه الدنيا فيقول :

فَهُمُ شيعتي وقِسْمي من الأمـّـ ـــةِ حَسْبي من سائرِ الأَقْسامِ

أَخْلَصَ اللهُ لي هوايَ فما أُغْـ ـــرِقُ نَزْعًا ولاتَطيشُ سِهَامِي (23)

فهو يبدأ وينتهي بذكر ذلك الهوى الذي اختاره ، وهو حب بني هاشم بحيث لايحيد عنهم .

وفي شرح الهاشميات يورد الشارح مغمزا في هذا القول الأخير " بلغنا أن الكميت أنشد محمد بن علي بن الحسين هذا الشعر فلما انتهى إلى قوله : فماأُغرق نزعا ، ولاتطيش سهامي : قال محمد بن علي : من لم يغرق النزع لم يبلغ غايته بسهمه ، ولكن لو قلت : فقد أغرق نزعا ولاتطيش سهامي " (24).

ومما يجري هذا المجرى أبياته المشهورة :

طَرِبْتُ وماشوْقًا إلى البيضِ أَطْرَبُ ولالعبًا منـي أذوالشَّيْبِ يلـعـبُ

ولم يُلْهِني دارٌ ولارَسْـمُ منزلٍ ولم يَتَطَرَّبْني بنـانٌ مُخَضَّـبُ

ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والنُّهَـى وخيرِ بني حوّاءَ والخيـرُ يُطْلَـبُ

إلى النَّفَرِ البيضِ الذين بِحُبِهِم إلى الله فيما نالـني أَتَـقَـرَّبُ

بني هاشمٍ رَهْـطِ النَّبِيّ فإنـني بِهِم ، ولهم أَرْضَى مِرارا وَأَغْضَبُ

خَفَضْتُ لهم مني جَنَاحَيْ مَوَدَّةٍ إلى كَنَفٍ عِطْـفاهُ أَهْلٌ ومَرْحَبُ (25)

فنجد اللفظ الهادئ ، والكلمة المأنوسة ، والصورة الشعرية التقليدية التي لاجهد فيها ولاتكلف ، فهو يسوق مديحه عذبا رقراقا إلى النبي وآل بيته ، ولغته هنا هي لغة المشاعر الإنسانية التي تعبر الزمان ، والمكان ، ويفهمها كل ناطق باللسان العربي ، ولغته هنا مختلفة عن لغة وصفه للناقة ، والدفاع عن المضرية ضد اليمنية , وهي تلك اللغة التي كتب فيها نونيته الشهيرة .

التعليل لهوى الكميت المشبوب لآل البيت .

يعن للشاعر – أحيانا – أن يعلل هذا الهوى تعليلا هو أقرب للنثر البعيد عن روح الشعر الذي يعتمد على التخييل في إظهار لون العاطفة . ويبدو التعليل ممزوجا بعلل تقليدية لابد أن يضمنها شاعر المديح شعره مادام موجها إلى الملوك والسلاطين أو إلى آل البيت . ومن ذلك قوله إنه يبدي المودة لبني هاشم فروع الأنام وهذه هي صفاتهم :

لِلْقَرِيبِينَ من نِدَىً والبَعِيدِيـْ ـنَ من الجَوْرِ في عُرَى الأحْكامِ
والمُصِيْبِيْنَ بابَ مأخـطَأَ النـَّا سُ ومُرْسِـي قـَوَاعِدِ الإسْلامِ
والحُمَاةِ الكُفَاةِ في الحـربِ إن لفَّ ضِرَامًا وَقُـودُها بِضِرَامِ
والغُيُوثِ الذين إن أَمْحَلَ النـَّا سُ فَـمَأْوَى حَوَاضِنِ الأيتَـامِ (26)

فهذه صفات تقليدية طالما تداولها المادحون قبله ، وإلا فبم يصفون ممدوحيهم إن لم يصفوهم بالندى ، وهو تلك الصفة الحميدة عند العرب ، وهم الحماة ، والكفاة ، وأهل النجدة الذين يفزع الناس إليهم وقت الشدائد .

ويشبه هذه الأبياتَ – إلى حد بعيد – في التعليل التقليدي تلك الأبياتُ التي تمتلئ بصفات الرحمة والرأفة ، والندى ، ودفع الظلم عمن سواهم . يقول الكميت :

وهُمُ الأَرْأَفونَ بالنّاس في الرَّأْ فَةِ والأَحْلَمُونَ في الأحـلاَمِ
بَسَطُوا أَيْدِيَ النَّوَال وكَفّـُوا أيديَ البغْيِ عنهمو والعُرَامِ
أسرةُ الصادقِ الحديثِ أبي القا سِمِ فَرْعِ الـقُدَامس القُدّامِ (27)

ويواصل الكميت في القصيدة الثالثة من هاشمياته مدحه الذي تحركة العاطفة الدينية بقوة فلم نتطرق بعد إلى شعره الحجاجي المُسْتقى من بيئته وعصره الذي شبّهه الدكتور شوقي ضيف بالمقالات العصرية (28) فيقول :

إلى السِّراجِ المنيرِ أحـمدَ لا تَعْدِلُنِي رغـبةٌ ولارَهَـبُ
عنهُ إلى غيرِهِ ولو رفعَ الـ نَّاس إليَّ العـيونُ وارتـقَبُوا
وقيل أَفْرَطْتَ بـل قصدتُ ولو عّـنَّفَنِي القائلون أو ثَلَـبُوا

إليك ياخيرَ مـن تَضَمَّنتِ الـ ـرضُ وإن عابَ قوليَ العَيَبُ
أنتَ المُصَفَّى المُهَذَّبُ المَحْضُ في الـ نِّسْبَةِ إنْ نصّ قومُك النَّسَـبُ (29)

ولعل ما قدمت من هذا اللون من ألوان المديح كافٍ للدلالة على أن هذه المقطوعات الكاملة وشّحت بوشاح العاطفة الدينية الخالصة ، فأتى الشاعر بالمستساغ من المعاني ، والمألوف من الألفاظ . وحلت العاطفة المتقدة محل الخيال الشعري المحلق ؛ فلم يجهد الشاعر نفسه في تحري الخيال في صوره الفنية ، وهذا أدى إلى فتور هذا الشعر ، وجريانه على المعاني الدينية المألوفة وهذا ماسيجلوه البحث في موضعه من الدراسة عن الكميت .

2- المديح المشوب بالحجاج العقلي :

وللكميت في هاشمياته مطولات موثّقة يظهر فيها علمُه بالأنساب ، وبالأيام ، ويبدو فيها حجاجه العقلي الذي استقاه من بيئته . وقد أعجب بالمعتزلة كإمامه زيد بن علي بن الحسين * وذهب مذهبهم في تفنيد الحجج فكان شعره الذي يجري على هذه الطريقة بديعا في نظر بعض باحثينا الكبار * – وهو ماستتم مناقشته في غير هذا الموضع من البحث .

ومن هذا الشعر الحجاجي الموثق شعره الذي يراعي فيه نسب النبي إلى تهامة ويثْرب ، ولايفوته فيه أن يذكر أهل البيت بألقابهم ، وأن يذكر الحوادث التي وقعت ويؤرخ لها نحو قوله :

طَيّب الأصلِ طيّب العودِ في البِنْـ يـَةِ والفرعِ يَثْرِبِيٌّ تـِهَامِي
أبْطَحيٌّ بِمَكـّة اسْتـَنْشَقَ اللـ ـهُ ضياءَ العمى بهِ والظَّلامِ
وإلى يـثربَ التحـوُّلَ عـنّها لمَقَـامٍ عن غيرِ دارِ مقـامِ
هـجرةٌ حوّلَتْ من الأوسِ والخْزَ رجِ أهـلِ الفَسيلِ والآطَـامِ
ذو الجَنَاحَيْنِ ، وابنُ هالةَ مِنْهُم أَسَدُ اللهِ والكَمِيُّ المُحَـامي
لاابنُ عـمٍّ يُرَى كهذا ولاعـَـ ـمٌّ كهَذَاك سَيّد الأعـمـامِ
والوصيُّ الذي أمـالَ التّجـُـو بيُّ به عرشَ أمّـةٍ لانْهِدَامِ (30)

فهاهو الكميتُ يعمل عمل المؤرخ في هذه الأبيات ، وكأنه نسَّابة منوط به معرفة سلسلة النسب . فنراه يذكر ذا الجناحين ، وهو جعفر الطيار أخو الإمام علي بن أبي طالب ، وابن هالة ويعني به حمزة بن عبد المطلب ، وأمه هي هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ويعني بالتجوبي عبد الرحمن بن ملجم ، وهو قاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

ولايفوته – وهو يترجم للأشخاص هذه الترجمة الشعرية – أن يترجم للحادثات أيضا ، فهو يذكر يثرب التي تحول عنها من مكة البطحاء ، **ثم ماكان** من أمر المؤاخاة بين الأوس والخزرج . وبين هذا وذاك تتساقط كلمات المديح ، وتبدو عاطفة الرضا توشح هذه الأبيات التي لاينسى فيها ذكر العمومة وأبناء العمومة من آل البيت ؛ وكأنه يريد أن يؤكد على جانب الروابط الأسرية أيضا إلى جانب العصبية القبلية فضلا عن رابطة الدين .

ويتقدم الكميت خطوة أخرى نحو التوثيق فيذكر من الحوادث حادثةَ مقتل الإمام علي – رضي الله عنه – ومقتل ابنيه الحسن ، والحسين فيوثق هذه الحوادث شعرا فيقول :

قَتَلُوا يوم ذاك إذ قَتَـلوهُ حَكَمًا لاكَغَــابِر الحُكَّــامِ

راعِيَا كان مُسْجِحًا ففقدْنا هُ وفقْدُ المُسِيمِ هُـلْكُ السّوَامِ

جرّد السيفَ تَارَتَيْن من الدهــ ـرِ على حينِ دِرَّةٍ منْ صَرَامَ (31)

ثم يستحضر قتل الحسن – عليه السلام – فيقول متأثرا ، ومظهرا عقيدته الشيعية :

وَوَصِيُّ الوَصِيّ ذي الخُطَّةِ الفَصْـل ومُرْدِي الخُصُومِ يومَ الخِصَامِ (32)

ثم ينتقل إلى مقتل الحسين – عليه السلام – ؛ وكأنه نذر نفسه لمدح آل البيت ورثائهم – وهو لون خفي من المديح – وهجاء خصومهم ، والذود عنهم ، وتصوير مقاتلهم في شعر يظل خالدا بعد أن تطوى صحائفهم :

وَقَتِيلٌ بالطّفّ غـودرَ مــنهُ بينَ غَوْغَاءِ أمّــةٍ وطـغَام (33)

ثم ينثني فيورد ذكر محمد بن الحنفية ، وقد طُرِدَ من مكة حين أحلَّ القتل فيها عبد الله بن الزبير فيقول :

وسَمِيُّ النبيِّ بالشِّعبِ ذي الخَيْـ ـفِ طَريدُ المُحِلِّ بالأَحْرَام (34)

وسمي النبي يعني محمد بن الحنفية – رضي الله عنه – والمُحِلّ : الذي أحلّ مالايحل .

ثم يعرّج على العباس بن عبد المطلب ،ولست أدري فيم إقحامه هنا مع ذكر المقتول ، والمسموم ، والمطرود ولم يكن منهم ؟؟ فيمدحه الكميت ، ويمدح نفسه وفاء لهم وحبا حين يقول :

وأبو الفَضْلِ ، إن ذكرَهُم الحُلْـ ـوَ بفِيـيِّ الشِّفَـاءُ للأسْقَـام

فيهُمُ كنت للبعيـد ابـنَ عـمٍّ واتَّهَمْتُ القريـبَ أيَّ اتـهَام

ورأيتُ الشريفَ في أعينِ القـوْ ـمِ وضيعًا وقلَّ منه احْتِشَامي (35)

وكما رأينا فإنه قد بدأ " وثيقته الشعرية " بالنبي ثم عرَّج على سلالته من نسل الإمام علي بن أبي طالب مما دفع به إلى ملاقاة العنت الشديد في مواجهة خصومهم الذين كادوا له ، وأضمروا له الخديعة حتى قتلوه .

ويتخذ الحجاج العقلي لدى الكميت مسارات مضافة إلى مساره السابق في تأكيده حقَّ البيت الهاشمي في الخلافة معتمدا على القياس المنطقي ، والحجج العقلية التي لاتقبل جدلا ، كما يتخذ منه وسيلة لهجاء بني أمية وبيان فساد حكمهم ، وأخيرا يتخذ من الحجاج وسيلة للدفاع عن نفسه ضد من لامه في انتصاره لآل البيت وتشيعه الواضح ، ولعلهم استشعروا هلاكه في ذلك الهوى المشبوب الذي جر عليه الويلات حتى أفضى إلى قتله في نهاية المطاف .

<u>التوثيق لحقِّ بني هاشم في الخلافة شعرا .</u>

شغلت قضية الخلافة وحق بني هاشم فيها – دون غيرهم – الكثير من شعر الكميت بن زيد ؛ فظل يطيل القول فيها شعرا ، ويقيم لها الحجة تلو الأخرى جاعلا موهبته الشعرية في خدمة القضية الهاشمية التي تسلح لها بأقوى سلاح في عصره ، وهو الحجاج العقلي ، ولنتقدم خطوة من شعره حيث يقول :

بِخَاتِمِكُم غصبًا تجـوزُ أُمُورُهُم فلـمْ أرَ غَصْـبًا مثلَهُ يُتَغَصَّبُ

وجـدنا لكـمْ في آلِ حاميمَ آيةً تأوَّلَها منّــا تَقِــيٌ ومُـعْرِبُ
وفي غيـرِهــا آيًا وآيًا تتابَعَتْ لكم نَصَبٌ فيها لذي الشّكِّ مُنْصِبُ
بحقِّـكُمُ أمــستْ قريشٌ تقودُنا وبالفذِّ منها والرَّديفَـيْنِ نُرْكَـبُ
أقارِبُنَا الأدنونَ منـْهُم لِعَــلَّةٍ وسَاسَتُنَا منــهُم ضبـاعٌ وأذْؤُبُ
لنا قائدٌ منهـم عــنيفٌ وسائقٌ يقَحِّمُنا تلكَ الجــراثيمَ مُثْــعِبُ
وقالــوا وَرِثْناها أبانا وأمَّــنا وماوَرَّثَــتْـهـم ذاك أمٌ ولاأبُ
يرونَ لهم فضلًا على الناس واجبًا سَفَاها وحـقُ الهاشميينَ أوجـبُ
ولكــنْ مواريـثُ ابنِ آمنةَ الذي به دَانَ شـرْقِيٌ لكمْ ومُغَرّبُ (36)

ولعل وقفة متأنية عند كل بيت على حدة تقرب القارئ من هذا العالم الحافل بالحجاج العقلي المتأني ، فنرى في البيت الأول تألم الشاعر من انتزاع الخلافة التي كنى عنها " بالخاتم " ذلك الخاتم الذي يرمز إلى الملك الذي انتزع من آل البيت ، وصار إلى بني أمية الذين اغتصبوا الخلافة ، ولعل في تكرار " اغتصب " مايدل على المرارة التي يشعر بها الكميت وقد تكررت مادة " غصب " في صورة المصدر مرتين ، وفي صورة الفعل المبني للمجهول مرة واحدة .

وفي البيت الثاني يخاطب بني هاشم قائلا : إن حقكم منصوص عليه في القرآن الكريم في القرآن الكريم في قوله تعالى : " قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" الشورى 23 والمعْرب أي المبين ، يقال إنه لعربي بين العرابة . وروي إنه لعربي بيّن العرابة . وروي " تقي ومعرب" بالزاي أي خال من الخير .

وفي البيت الثالث يقول : وفي غير آل حاميم آيات كثيرة من مثل قوله تعالى " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" الأحزاب 33 وكذلك قوله عز وجل "وآت ذا القربى حقه" الإسراء 26 ومن ذلك أيضا " فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى" الأنفال 41 وقوله : لكم نصيب منصب للشاعر أي لايقدر أن يتأول هذه الأبيات في غيركم .

وفي البيت الرابع ينعَى على بني أمية قيادتهم للأمة وقد اغتصبوا حق بني هاشم فصاروا إلى الخلافة ، ويعني بالفذ معاوية بن أبي سفيان ، والرديفين وَلِيَّيْ عهده يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد .

وفي البيت الخامس يقول :إ ن بني أمية هم في العداوة كعداوة بني العلات ، والعلات أمهات شتى لأبناء رجل واحد . والمراد أن سياستهم للأمة كسياسة الذئاب التي تعيث في البهائم .

وفي البيت السادس يريد بالقائد الخليفة من بني أمية الذي يصفه بالعنف ، والسائق هو عامل بني أمية عليهم فيظهر سخطه على القائد وعامله اللذين يجشّمان الناس مالاطاقة لهم به .

وفي البيت السابع ينعي على بني أمية الكذب المدعى بأنهم ورثوا الخلافة عن النبي فيؤكد في البيت الذي يليه أنهم ماورثوا ذلك عن أم ولاأب ، وإنما الميراث الذي آل إليهم إنما هو من حق ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وهو النبي عليه الصلاة والسلام .

وكل ماسبق يشي بثقافة تاريخية عميقة فضلا عن عاطفة دينية تملي عليه هذا الموقف الذي لم يقفه غيره من حب آل البيت .

ثم اندفع يكمل وثيقته التاريخية على العصر يضمنها عاطفته الدينية ومعتقده الشيعي فيعرج على الوصي علي بن أبي طالب فيتحدث عن حقه في الخلافة في منطق سليم حتى سيق إلى الموت سوقا ، وقتل غيلة وغدرا ، فيقول :

لقدْ غَيَّبُوا بِرًّا وصِدْقًا ونائِــلًا عشيَّةَ وَارَاكَ الصَّفيحُ المُنَصَّبُ
يقولونَ : لمْ يُورَثْ ولولا تُرَاثُهُ لقدْ شَرِكَتْ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ
وعَكٌّ ولَخْمٌ والسَّكُونُ وحِمْيَرٌ وَكِنْدَةُ والحَيَّانِ بَكْرٌ وتَغْلِبُ
ولَاانْتَشَلَتْ عِضْوَينِ منها يُحَابِرٌ وكان لعبدِ قيْسٍ عِضْوٌ مُؤَرَّبُ
وماكانتِ الأنصارُ فيها أذِلَّةً ولاغُيِّبًا عنْهـا إذا النـاسُ غُيَّبُ
همُ شَهِدوا بدرًا وخيبرَ بعدها ويومَ حُـنَيْن والدِّماءُ تَصَبَّبُ
فإنْ هي لم تَصْلُح لحيٍّ سواهُمُ فإنَّ ذوي القُرْبَى أحقُّ وأقْرَبُ (37)

وكما رأينا فإن الأبيات وثيقة تاريخية تشهد على الحوادث ، والأسماء ، والتاريخ الإسلامي كتب مضمونها مقالات وكتبا في تفنيد هذه الحجج القوية التي تصم بني أمية – من وجهة نظره – باغتصاب الخلافة . يبدؤها بأن يصف النبي –صلى الله عليه وسلم – بأنه رجل بر ، وصدق ، وكرم غيبته أمية في قبر " الصفيح المنصب " . وهذا الرجل الصادق النائل هو الأحق بالميراث . ويؤكد الشاعر أن الخلافة لو لم تكن إرثا للوصي وبنيه لوجب أن تشارك فيها جميع القبائل فلماذا اختص بها البيت الأموي ؟

وهنا يُظهر الكميت علمه بالتاريخ في ذكره المتتابع لهذه القبائل : بَكيل ، وأَرْحب ، وعَكْ ، وحِمْير ، والسَّكُون ، وكِنْدة ، وبَكْر ، وتغلِب ، ويُحابِر ، وعبد قيس ، وكذلك الأنصار الذين حاربوا في بدر وخيبر.

ونحن إذ نكتفي بهذا القدر من تلك القصيدة الطويلة إنما نمثل لبقيتها التي تحمل الأفكار ذاتها والدافعية عينها في حق آل البيت في الخلافة تدفع إليه عاطفة فياضة وعقيدة ثابتة ، لكنه في عمومه يبعد عن روح الشعر خيالا مولدا صورا فنية جديدة تصل مابين عوالمه بعضها البعض عندما يجلو الشاعر غموضها ويزيح عنها أردية الغموض فيدنيها لنا ، وهو موضوع النصف الثاني من البحث .

ولعل قصيدة الكميت السادسة تبرز لنا هذا الحق أيضا ؛ويبدؤها بمطلع يشبه المطالع الغزلية في ألفاظه ومعانيه فيقول :

نَفَى عن عَيْنِكَ الأرقُ الهُجُوعَا وهَمٌّ يَمْتري منها الدُّمُـوعا

دخيلٌ في الفؤادِ يَهِيجُ سُـقْمًا وحَزْنـًا كان من جَذَلٍ مَنُوعَا (38)

ولماذا كان هذا البكاء ؟ ولماذا كان هذا الوهم والحزن والحرمان من الفرح ؟ إن الإجابة تأتي في البيتين التاليين :

لِفُقْدَانِ الخَضَارِمِ من قريشٍ وخيرِ الشافعينَ معًا شّفيعا

لدى الرحمنِ يَصْدَعُ بالمَثَانِي وكان له أبو حَسَنٍ مُطِيعَا (39)

وبعد هذا الاستهلال العاطفي الذي يَظْهر فيه أَرَقُه ، وتفجعه ، وسقمه ، وحرمانه من الجذل لفقدانه الكرام من قريش،وعلى رأسهم النَّبي الذي يصدع بالقرآن ، ويتابعه علي بن أبي طالب وبنوه يحدد – وثائقيا – كيف لم يَؤْل هذا الأمر إلى علي بن أبي طالب . ولو أننا تتبعنا تكرار الكميت في هذا الموضوع فكرة وألفاظا ومعاني لسودنا الكثير من الصفحات في هذا التكرار الذي جنى على فنه الشعري . فلنسمعه يقول :

وأَصْفاهُ النَّبيُّ على اختيارٍ بما أعيا الرُّفُوضَ له المُذيعَا
ويومَ الدَّوحِ دَوْحِ غديرِ خُمٍّ أبانَ له الولايَة لو أُطيعَا
ولكنّ الرجالَ تَبَايَعُوها فلم أرَ مثلَها خَطَرا مَبيعَا
فلمْ أبلغْ بهم لعنا ، ولكنْ أساءَ بذاكَ أوَّلُهمْ صَنيعا
فصارَ بذاكَ أقرَبُهُمْ لعدل إلى جَوْرٍ وأحْفَظُهُمْ مُضِيعَا (40)

وهكذا يمضي الشاعر ناعيا ينعي أمر الخلافة الذاهبة ، ويؤكد أن عليا كان أحفظ لها من غيره ، فصار أحفظهم للخلافة مضيعا لها ويقصد بني أمية بطبيعة الحال ، ويمضي مؤكدا أنها ماكان ينبغي أن تكون بيعة بل وراثة وولاية واجبة لابن عم النبي وآل بيته من بعده .

3– المديح المشوب بهجاء بني أمية وتسفيه أعمالهم :

والرافد الثالث للمديح عند الكميت هو بغضه بني أمية لصالح آل البيت ؛ فهم من اغتصبوا الخلافة وهم من حاربوا الإمام عليا وشيعته ، ونكّلوا بهم . يعرض الكميت كل ذلك في قصائده الثماني رغم مبدأ التقية الذي كان يعتقده ويعمل به مخفيا عقيدته الشيعية . فنراه منذ القصيدة الهاشمية الأولى يغمز بني أميّة ، ويلمزهم في مقارنته لهم بالأسرة العلوية الهاشمية . فهاهو يقول في بيان ظلمهم وعدل غيرهم :

ساسةٌ لاكمنْ يَرَى رِعْيَةَ النّا سِ سواءً ورِعْيَةَ الأنعامِ
لاكَعَبْدِ المليكِ أو كولـيـدِ أو سُلَيْمانَ بَعْدُ أو كَهِشامِ (41)

وفي القصيدة الرابعة من الهاشميات تتوالى أبياته في هجاء بني أمية معددا مثالبهم فيبدؤها هذه البداية الاستفهامية :

ألا هلْ عَمٍّ في رأيهِ مُتَأَمِّلُ وهلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الإساءةِ مُقْبِلُ (42)

ثم يشرع في هجاء بني أمية بما يفعلونه ؛ فهم نائمون ، وهم غافلون عن أحكام الدين يطبقونها فيقول :

وهل أمةٌ مستيقظونَ لرشـــدِهِـم فيكشِفُ عنه النَّعْسَةَ المُتَزَمِّلُ
فقدْ طالَ هذا النومُ واسْتَخْرَجَ الكَرَى مسَاويَهم لو أنَّ ذا الميلِ يعدلُ
وعَطَّلَتِ الأحكـــامُ حتـى كأننا على مِلَّـةٍ غيرِ التي نَتَنَـحّلُ
كـلامُ النَّبيـينَ الـــهـُداةِ كلامُنَـا وأفعالُ أهــلِ الجاهليَّةِ نَفْعَلُ
رضِـينا بدنيا لانـريدُ فِراقَــهـا على أننا فيها نمــوتُ ونُقْتَلُ
أرانا على حبِّ الحياة وطُـولِهـا يُجَدُّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِلُ (43)

ويعرّج على سوء إدارتهم ، وسوء حكمهم للبلاد فيقول في لغة هي لغة البدو والأعراب الذين اقتدى بهم :

فتلـك أمــورٌ أضحـتْ كأنّــها أمورُ مُضِيْعٍ آثَرَ النوّمَ بُـهَــلّ
تَمَقَّقَ أخلافَ المعــيشةِ منهم رِضَاعا وأخلافُ المعيشةِ حُـفَّلُ
مُصِيبٌ على الأعْوادِ يومَ ركوبِها لما قالَ فيها مخـطئٌ حينَ يَنْزِلُ
يُشَبِّهُهَا الأشباهَ وهي نَصيبُــه له مَشْرَبٌ منها حرامٌ ومَـأْكَلُ
فياسَاسَتا هاتوا لنا من جوابِـكم ففيكم لَعَمْري ذو أفـانينَ مِقْـوَلُ
أأهلُ كتابٍ نحـــنُ فيه وأنتمُ على الحقِّ نَقْضِي بالكتاب ونَعْدِلُ
فكيفَ ومنْ أنَّى وإذْ نحنُ خِلْفَةٌ فريقانِ شتى تَسْمَنُونَ ونَهْــزِلُ
أمْ الوحيُ منبوذٌ وراءَ ظهورِنا فيحكثــمُ فينا المَرْزُبَانُ المُرَقَّلُ
لنا رَاعِيَا سَوْءٍ مُضِيعَان منهما أبوجَعْدَةَ العَـادِي وعَرْفَاءُ جَيأْلُ (44)

ولئن كان قد عبر عن ظلم بني أمية في الأبيات السابقة التي راعى فيها التصوير الفني المنتزع من قلب البيئة ذلك التصوير الذي كان يجاري فيه الذوق البدوي – مما سيتم تناوله في النصف الثاني من البحث – فإنه في الأبيات التالية يلين لفظه وينحو نحو السهولة حتى ليبلغ به فهم كل ناطق بالعربية :

لهم كلُّ عامٍ بـدْعةٌ يُحْدِثُونَها أَزَلُّوا بها أَتْبَاعَهُم ثم أَوْحَلُوا
كما ابتدعَ الرهبانُ مالم يَجِئْ بهِ كتابٌ ولاوحيٌ منْ اللهِ مُنْزَلُ
تَحِلُّ دمـــاءُ المسلمينَ لَدَيْهُم ويَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ المُتَهَدِّلُ(45)

ثم يخلص من هجائهم – الذي لم يدع منقصة إلا وألصقها بهم – إلى ذكر الحسين ، وآل البيت مترحما عليهم ، مكررا ماسبق قوله مرارا نتيجة الفكرة الواحدة الناتجة عن عقيدة التشيع ، وكأن الحسين وآل بيته هاجسه الذي يلاحقه في صحوه ، ونومه فما يلبث أن يتذكرهم ، وما هو بناسيهم . فيقول ختاما لتلك القصيدة التي تشتعل بهجائه لبني أمية :

وغابَ نبيُّ اللهِ عنـهـُـــم وفَقْدُهُ على الناسِ رُزْءٌ ما هناك مُجَلَّلُ
فلم أرَ مخـــــذولًا أَجَلَّ مُصِيبَةٌ وأَوْجَبَ منهُ نُصْرَةً حينَ يُخْـذَلُ
يُصيبُ به الرامونَ عنْ قوْسِ غيرِهم فيا آخِرا سَـدَّى له الغَيَّ أولُ
تَــهَافَــتَ ذُئبانُ المطامعِ حَوْلَـهُ فريقانِ شَتَّى ذو سِلاحٍ وأعْزَلُ
فريقانِ هذا رَاكِـبٌ في عَــــداوةٍ وباكٍ على خِذْلَانِه الحقَّ مُعْوِلُ (46)

وبهذا أكون قد أوضحت مذهب الكميت الذي تمثل في تكريس جل شعره لنصرة آل البيت بصور ثلاث هي : مدحهم مدحا عاطفيا خالصا ، ومدحهم مدحا حجاجيا موثقا بالدليل ، وهجاء أعدائهم من بني أمية .

ومن دون شك فإن الخوض المباشر في بناء هاشمياته فنيا من دون عرض نظريته يضر بالموضوع أبلغ الضرر ؛ فلابد في رأيي – في كل البحوث – أن تعرض النظرية أولا حتى تتمكن

من ذهن القارئ فيستطيع أن يخوض بعد ذلك في التفاصيل الفنية الكثيرة لأن التحليل الفني الاستقرائي والاستقصائي لكل الظواهر الفنية في القصيدة من شأنه أن يمزقها إلى قطع وأجزاء مثناثرة لايستطيع معه القارئ أن يلم شعثها أو يقف على أفكارها ؛ومن ثم يكون رأيا واضحا عن الموضوع .

ثانيا : بناء المدحة الهاشمية :

جرى الكميت في بنائه لقصائده الهاشميات على سنن من كانوا قبله في عمومه، ولم يخالفهم إلا في اليسير من أمره ؛ فلئن كان الجاهليون والمخضرمون قد وقفوا على الأطلال والدِّمن ، وتغزلوا بالمعصرات ، وبالمحجبات ؛ فإنه خالفهم بنفي وقوفه على الآثار الدارسة ، ونفى ولوعه بالبيض الحسان ، كما خالفهم أيضا في عدم ذكره أصلا لهذه المطالع الطللية والغزلية بل بدخوله مباشرة إلى الغرض الأصلي وهو مدحه للهاشميين ، وتبدت مخالفته لهم في جعله وصف الناقة تاليا لولوجه إلى الغرض الأصلي ، وليس سابقا له كما كان يفعل أسلافه ، أما في غرضه الأصلي من المدحة فقد تابع أسلافه في الصفات التي أسبغوها على ممدوحيهم – كما سنرى – اللهم إلا من بعض الصفات التي دخلت قاموسه الشعري لتأثره بالإسلام كالزهد ، والتقوى ، والورع ، والرحمة ، والرأفة ، والحلم .... ومالإليها من صفات .

وبعد هذا الإجمال الموجز تفصيل مطلوب من شعر الكميت بن زيد الأسدي .

1: استخدام بنية النفي في المطالع الهاشمية :

أُشْرِبَ قلبُ الكميت حب آل البيت ، وهذا الحب جعله متلهفا على شرح الشوق كله لهم مما دفعه إلى الإسراع في بعض مطالعه إلى نفي تعلقه بالغانيات ، أو وقوفه بالعَرَصَات ، ثم خلوصه من ذلك النفي إلى غرضه مباشرة ، وذلك يدل – في رأيي – على أمرين :

الأول : قوة تلك المطالع الطللية وتمكنها من نفس الشعراء .

الثاني : انتصار الكميت على تلك المطالع التي تمثل قيودا لاحدَّ لها عند الشعراء .

فهانحن نرى في هاشميته الأولى نفيا قاطعا للتعلق بالحسان (الواضحات الخدود) في بيتين ثم يلج في الثالث إلى غرضه الأصلي من المدحة :

مَنْ لقلبٍ مُتَـيَّمٍ مُسْتَـهامِ غَيْرِ ما صَبْوةٍ ولاأحـلامِ

طارقاتٍ ولاادّكارِ غـوانٍ واضحاتِ الخدودِ كالـآرامِ

بل هوايَ الذي أُجِنُّ وأُبْدِي لبني هاشمٍ فُرُوعِ الأنـامِ (47)

ونرى النفي نفسه في قصيدته الهاشمية الثانية التي يطَّرح فيها ولوعه بالحسان (البيض) ويثبت تعلقه الشديد بآل البيت ؛ فلايقف بالديار ، ولاينوح عليها كما في قوله :

طربتُ ، وماشوقا إلى البيضِ أَطْرَبُ ولالَعِبًا مني أَذُو الشَّيبِ يلعبُ ؟

ولم يُلْهِـنِي دارٌ ولارسـمُ منـزلٍ ولم يَتَطَرَّبْنِي بَنانٌ مُخَضَّـبُ (48)

فلقد تكررت بنية النفي – هنا– أربع مرات ذكر فيها الصفات التقليدية للمرأة التي كان يعشقها أهل عصره من (بياض ، وبنان مخضّب) وغير ذلك مما سيرد في شعره ، ويصبح وثيقة لجمال المرأة الجاهلية التي مثلت حلما وهاجسا يلح على الشعراء حتى في نفيهم لذلك التعلق بها .

ونرى الكميت قد أمعن في نفي تعلقه بعادات قومه في ذلك الوقت من تشاؤم وتطير في بيتين آخرين ما يلبث أن يعود منهما سريعا إلى غرضه الأصلي في مدح آل البيت :

ولاأنا مِمَنْ يَزْجرُ الطيرَ هَمُـّهُ أصاحَ غرابٌ أم تَعَرّضَ ثعلبُ

ولاالسانحاتُ البارحاتُ عشيَّةَ أَمَرَّ سليمُ القرنِ أَمْ مرَّ أَعْضَبُ

ولكنْ إلى أهلِ الفضائلِ والنُّهَى وخيرِ بني حواءَ والخيرُ يطلبُ (49)

إن الكميت استبدل محبوبا بمحبوب اختلف تماما عن محبوب أسلافه الذي طالما أغرموا به ، وأفسحوا له مطالع قصائدهم غاديا ، ورائحا ، مقيما ، وظاعنا .

وتتصدر بنية النفي القصيدة الثالثة حيث ينفي تعلقه بالحسان (المحجبات ، والمعصرات)، ولاشك أن هذا النفي المتكرر يدل على ولوع القوم بالنساء ولوعا لم يغادرهم حتى مع مجيء الإسلام الذي

هذب كثيرا من طباعهم ، وربما لتمكن التقليد من نفوسهم . وفي ذلك يقول الكميت مستفهما ثم نافيا :

أَنَّــى ومنْ أينَ آبَكَ الطَّرَبُ مَنْ حيثُ لاصَبْوةٌ ولارِيَـبُ

لامِنْ طِلابِ المُحَجَّـبَاتِ إذا ألقي دونَ المَعَاصِرِ الحُجُبُ (50)

وتستمر بنية النفي معه في هذه القصيدة حتى البيت الثاني والثلاثين موردا من عادات القوم الراسخة ما يمكن أن يمثل وثيقة تاريخية :

ولاحُمولٍ غـدتْ ولادِمَـــنٍ مَرَّ لها من بعدِ حِقْبَةٍ حِقَبُ

ولم تَـهِجْنِي الظُّؤَارُ في المنزل القفرِ بُرُوكًا مالها رُكَـبُ (51)

إلى آخر أبياته الطويلة في استغراق بنية النفي كل مالديه من تعلق بشيء آخر سوى حبه الشديد للأسرة الهاشمية الذي أنهى به كل هذا النفي المطول :

إلى السِّراجِ المنيرِ أحمدَ لا تَعْدِلُني رَغْبَةٌ ولارَهَبُ (52)

ولعلنا نلاحظ أن النفي حافل بتفصيلات كثيرة غايتها عرض خبرته في تقليد من سبقه من وقوف بالديار ، ومن تطير وتشاؤم وغيرها من عادات القوم التي عرضها الكميت نافيا تعلقه بها .

ونرى النفي يلعب دورا غير منكور في هاشميته الخامسة ؛إذ ابتدعه الكميت بديلا عن إثبات حق الأطلال أن تتسيد المطالع وتمتطي ألسنة الشعراء . إنه زحزح المرأة عن مكانتها الأثيرة ، وغادر الأطلال والدمن إلى غير رجعة ؛ ولعل هذا من تأثير الإسلام الذي جعل للأخلاقيات والمثل العليا مكانة طغت على ماديات الماضي الجاهليّ وتقديسه لكل ماهو محس وعلى رأسه المرأة . فنراه يقول مضيفا إلى النفي والاستفهام :

طَرِبْتُ ، وهلْ بكَ منْ مَطْرَبِ ولم تَتَصَابَ ولم تَلْعَــبِ ؟

صبابةَ شوقٍ تَهِيجُ الحــليمَ لاعارَ فيها على الأَشْيَبِ

وما أنتَ إلا رُسُومُ الدِّيــارِ ولو كُنَّ كالخِلَـلِ المُذْهَبِ

ولاظُعُنُ الحيِّ إذ أَدْلَجَـتْ بَواكِـرُ كالإِجْـلِ والرَّبْرَبِ

ولستَ تصَبُ إلى الظاعنينَ إذا ماخَلِيلُكَ لم يَصْــبَبِ (53)

إنه ينفي تعلقه بكل ماسبق من وسائل اللهو التي شغلت معاصريه ، ويلج إلى غرضه الأساس الذي يعنيه والذي جعله يقع في أسر هذا التكرار الممجوج مستخدما فيه الألفاظ ذاتها وصفا للمرأة ، والطلل ، والتشاؤم ، والتفاؤل ، وموردا صيغ النفي ذاتها ، وصيغ الاستفهام عينها ، وأساليب النفي نفسها . وقد لفت التكرار نظر الدكتور شوقي ضيف الذي استحسنه وبرر له في قوله حين عدّد صفات الإمام لدى الزيدية ومنها : أن يكون عالما ، وشجاعا ، وزاهدا ، وسخيا فقال:" وتتوالى هذه الصفات في هاشميات الكميت ، ويظنها من لايعرف حقيقة مذهبه أنها تكرار وخطابة ، وهي نظرية الزيدية يذيعها الكميت في الشعر لأول مرة ، فيطيل فيها ، ويكثر من ذكرها وترديدها ، حتى يُثَبِت المذهب في نفوس أتباعه من جهة ، وغير أتباعه من جهة أخرى " (54) فإذا كان الكميت قد كرر نظريته وأطال في حجاجه لإثبات حق البيت الهاشمي ، فلماذا كرر في هذه المطالع ماكان في غنى عن تكراره ؟ حيث كان يكفيه الدخول في غرضه مباشرة كما فعل في قصيدتين من قصائده الهاشمية .

ونرى الكميت لايمل هذا النفي في مطالع الهاشميات ، وكأنما ابتدع طريقة جديدة في المطالع يريد أن يؤكد عليها لكي يتخذها الشعراء من بعده نهجا ؛ فهاهي الهاشمية السابعة تنحو نحو أخواتها في تأكيد نفي تعلقه بالمرأة على نحو خاص :

سَلِّ الهمومَ لقلبٍ غيرِ مَثْــبُولِ ولارَهِينٍ لدى بيضاءَ عُطْبُولِ
ولاتقفْ بديار الحيّ تسْــــأَلُها تبكي معارِفَها ضَلًا بِتَضليلِ
ما أنتَ والدارَ إذ صارتْ مَعَارِفُها للريحِ مَلْعَـبةً ذاتِ الغرابيلِ (55)

ثم يخلص إلى غرضه الرئيس في ثلاثة أبيات تقليدية :

نَفْسِي فداءُ رســـولِ اللهِ قِلٌّ لهُ مني ومِنْ بعدِهم أدْنى لِتَقْلـيلِ
الحازمُ الرأي والميمـونُ طائـرُهُ والمستضاءُ بهِ والصادقُ القيلِ (56)

ويبدو لي أن تكرار النفي في المطالع الهاشمية يريد به الشاعر أن يهدم النموذج الأنثوي وما يقترن به من وقوف على الأطلال ؛ ليحل محله النموذج الأخلاقي المثالي الممثل في آل البيت الأشراف إعلاء لمذهب الالتزام الذي دان به مبكرا قبل أن يبرز في الساحة النقدية المعاصرة ؛ فهو يهدم نموذجا بتكرار مفرط لبنية النفي ليبني نموذجا آخر أحدثته الملامح الجديدة للحياة السياسية التي انقسمت وتحزبت ؛ فكان الكميت في التزامه هذا مخلصا تمام الإخلاص لمذهبه وقد جنى عليه هذا الإخلاص في عدم تجويد فنه ؛ إذ جرّه إلى إعادة المضمون ذاته مع استخدام الأدوات الفنية نفسها من نفي ، واستفهام ، ومعجم شعري ، وصورة فنية .

وقد راوح الكميت في هاشمياته بين الولوج مباشرة في غرضه الرئيس ، وجعله صدر مدائحه ، ونفى ولوعه بغيرهم ، وهو الأكثر في مطالع المدحة الهاشمية ، ففي قصيدته الرابعة يلج إلى الغرض بشكل مباشر ويجعله صدر مدحته فيقول مستفهما :

ألا هلْ عَمٍّ في رأيهِ مُتَأَمِّـلُ وهلْ مُدْبِرٌ بعدَ الإساءةِ مُقْبِلُ ؟

وهلْ أمةٌ مستيقظونَ لِرُشْدِهِم فيكشفُ عنه النعسةَ المُتَزَمِّلُ ؟[57]

ونراه في الهاشمية الثامنة يجعل صدر مدائحه غرضا لعرض مذهب الزيدية في إيجاز شديد معجب يكفيك للتعرف إلى ركائز هذا المذهب : يقول في ذلك :

أهوى عليّا أميرَ المؤمنينَ ولا أرضَى بشتمِ أبي بكرٍ ولاعـمرا

ولاأقولُ وإن لم يُعْطِيَا فَدَكًـا بنتَ رسولِ اللهِ ولاميراثَهُ كـفَرَا

اللهُ يعلمُ مـاذا يأتـيانِ بـه يومَ القيامةِ من عُذْرٍ إذا اعـتَذَرَا [58]

يضاف إلى ذلك دخوله إلى الغرض المباشر في القصيدة السادسة وهو البكاء على الطالبيين بعامة ، والحسين بخاصة في إطار من مدح آل البيت مصحوبا بالبكاء والعويل الذي يناسب الغرض ويدل عليه فيقول :

نفى عن عينِكَ الأَرَقُ الهُجُوعَا وَهَمٌ يَمْتَرِي منها الدُّمُـوعَا

دخيلٌ في الفؤادِ يَهِيجُ سُقْمًـا وحُزْنًا كان من جَذَلٍ مَنُوعَا

لفقدانِ الخَضَارمِ من قريـشٍ وخيرِ الشافعينَ معا شفيـعا (59)

2-المعجم الشعري والصورة الفنية في المطالع :

إن المراقب لمعجم الكميت الشعري – وقد غزا شعره التكرار – يلحظ في لغته مستويين لافتين للانتباه :

المستوى الأول : بدوي مقلد .

والمستوى الثاني : حضري جديد .

فلماذا كان هذان المستويان في شعره ؟

إننا إذا راجعنا مطالعه التي سبقت جميعا لوجدنا أنها تحتوي على حالة شعورية واحدة ، ووصفا حسيا للمرأة – على نحو خاص – وللرسوم الدارسة على نحو عام مع الوضع في الاعتبار أن الكميت ينفي عن نفسه الوقوع في أسر الحالة الشعورية التي وقع فيها الآخرون ، وهنا نجد ألفاظ (الصبابة ، والشوق ، والطرب ، واللعب ، والهيام ، والتبال ، والأحلام) وقد مرّت بنا كل هذه الألفاظ – في الصفحات السابقة – حيث أوردت الباحثة المطالع كاملة .

ونجد – أيضا – النموذج الأنثوي الذي شغل الشعراء – ولم يشغل الكميت – حاضرا وصريحا في حسيته ؛ فالمرأة (محجبة ، ومعصرة ، ومخضبة ، وبيضاء ، وواضحة الخدود .....) وهنا نجد أنفسنا نقع في أسر المعجم الجاهلي بشكل متكرر ؛ فالألفاظ كلها مستقاة من القديم ، ولاتجديد في وصف من أوصاف المرأة نتيجة تأثره بالإسلام .

إذن فنموذج الجمال الأنثوي هو نفسه ، والآثار الدوارس هي نفسها بكل عناصرها من ظباء ، وآرام ، ودمن ، وعرصات . والحالة الشعورية التي ينفيها عن نفسه ، نراه يثبتها لغيره بما أورده من عناصر الاستحسان ؛ فهو لايكره النموذج الأنثوي في حد ذاته ، وإنما يرفضه لانشغاله بنموذج ثان أخلاقي مثالي معنوي – كما أسلفت .

وثمة مايلفت الانتباه أيضا ورود ألفاظ مثل (التبال ، والغرام ، ومتيم ، ومستهام ، في حق بني هاشم أيضا ، فلقد استعار – من المعجم الغزلي – القديم مايعبر به عن عواطفه تجاه آل البيت .

والحق أن صفة مثل "البياض" مثلا صفة مستحسنة في المرأة ، والرجل الجاهليين على حد سواء ، وتوصف بها الحسناء كما في قوله :

طربتُ وماشوقًا إلى البيضِ أطربُ ولاَلَعِبًا مني أذو الشَّيبِ يلعبُ ؟(60)

كما يوصف بها الأشراف الكرام كما في قوله من القصيدة ذاتها :

إلى النّفَرِ البيضِ الذين بحبّـهِم إلى اللهِ فيما نــالني أتقربُ (61)

وقد غلب عليه هذا اللون في وصفه للكرام حينا ، وللنساء حينا آخر .

ومن (البياض) إلى (الحمرة) في كثير مما أتى به كما في قوله :

ولم يُلْهِني دارٌ ولارسمُ منزلٍ ولم يَتَطَرَّبْني بنانٌ مُخَضَّبُ (62)

فلم يصف الكميت المرأة في مطالعه بصفة مذمومة في الجاهلية ؛ فكلهن معاصر ، ومحجبات ، وبيض ، ومخضبات ، وهي صفات محمودة في المرأة المصونة التي كان يتعلق بها الفرسان في الجاهلية .

أما الصورة الفنية – في تحديدها الجزئي – فنجد التشبيه المنتزع من البيئة في تشبيهه للغواني بالآرام في البياض ، وهو تشبيه مكتمل الأركان :

مَنْ لقلبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهَـامِ غيرِ ما صَبْوَةٍ ولا أحلامِ

طارقاتٍ ولاادّكار غوانٍ واضحاتِ الخدودِ كالآرامِ (63)

ونرى الكناية في وصفه للجميلات بالبيض فحسب فجعل البياض صفة جامعة للجمال في قوله :

طربتُ وماشوقا إلى البيضِ أَطْرَبُ ولالعبا من أذو الشَّيب يلعبُ ؟(64)

وفي وصف الديار الدارسة نرى التشبيه في قوله :

وما أنتَ إلا رسومُ الدِّيارِ ولو كنَّ كالخِلَلِ المُذْهَبِ (65)

فالتشبيه – هنا – " ولو كن كالخلل المذهب " لايسترسل الشاعر فيه ، ولايضمه إلى سواه من العناصر البلاغية ليشكل منها لوحة فنية متكاملة العناصر من لون ، وصوت ، ورائحة في مضمون يضم كل ذلك .

ونرى التشبيه – أيضا – في وصفه للبواكر وهن الفاتنات الحسان يُشَبَّهْن بالإجل ، والربرب في قوله :

ولاظُـــعُنُ الحيّ إذ أَدْلَجَتْ بَواكِرُ كالإِجْلِ والرَّبْرَبِ (66)

وتقل الاستعارة في تلك المطالع التي ينفي فيها عن نفسه الولوع بغير آل البيت ، والتي قل فيها استرساله في الوصف لخلوصه إلى الغرض الأساسي فنراه يقول :

ما أنتَ والدارَ إذ صارتْ معارفُها للريحِ ملعبةً ذاتِ الغرابيلِ (67)

وهكذا فإن الصورة الفنية في مستواها الجزئي البسيط لم تتطور في تلك المطالع المنفية والمستفهمة والحافلة بالمعجم اللغوي التقليدي الجاهلي .

3-الغرض الرئيس من المدحة معجما لفظيا وصورة فنية :

وفي غرضه الرئيس من الهاشمية – سواء أكان مدحا عاطفيا خالصا أو مدحا حجاجيا موثقا أو هجاء لبني أمية – فإنني أستعرض لغته التي بدت لغة حضرية ؛لأن غايتها الإقناع بالحجة ، وبالقياس المنطقي ؛ ففي معجمه الشعري نجد مستويين من المدح تمثلها تلك اللغة السهلة التي أشرت إليها سابقا ، حيث يتبدى المستوى الأول في الصفات المادية التي أسبغها على آل البيت أو كانوا يتمتعون بها ، ونلمح المستوى الثاني في الصفات المعنوية الراسخة فيهم مثل : الكرم ، والنجدة، والحماية ، والنجدة ، والإصابة إلى آخر الصفات التي سيتم عرضها فيما يلي .

وفي كلا المستويين نلمح معجما جاهليا أحيانا ، وحضريا أحيانا أخرى ؛ فأما الجاهلي فلأن الصفات التي يمدحهم بها ورد معظمها في الشعر الجاهلي ، وأما الحضري فلشيوع الألفاظ الإسلامية نتيجة طبيعية لتعاليم الإسلام .

ولننظر ما الصفات المادية الشكلية التي وصف بها آل البيت ، ونقارنها بغيرها من الصفات المعنوية من حيث النسبة ولماذا ؟

وإذا ماتقدمنا خطوة لنرى الصفات المادية التي ذكرها في شعره لهالنا ألا نرى إلا اللون الأبيض يصرح به تارة ، ويكني به تارة أخرى ، ولعل هذا يدل على أن اللون الأبيض كان ، ومازال رمزا للسيادة ضد السواد المقترن بالعبودية . ونلمح ذلك في قوله في سياق مدحي :

سادةٍ ذادةٍ عن الخُرَدِ البِيـــ ـضِ إذا اليومُ كانَ كالأيام (68)

والذين يذودون عن الخرد البيض لابد أن يكونوا مثلهم –في الغالب الأعم – نرى ذلك في قول الكميت :

إلى السِّراجِ المنيرِ أحمدَ لا تَعْدِلُني رغبةٌ ولارَهَبُ (69)

والبياض صفة مثبتة في قوله عنهم :

زُهْرٌ أَصِحَّاءُ لاحديثُهم وَاهٍ ولافي قَديمِهِم عطَبُ (70)

وتغلب الصفة في وصفهم أيضا بالبياض مع غيره من المعنويات مثل :

أكارمُ غُرٌّ حِسانُ الوجوهِ مَطاعِيمُ للطارقِ الأَجْنَبِ (71)

وفي القصيدة نفسها يكني بالصفة :

كأنَّ خدودَهُم الواضــحا تِ بينَ المَجَرِّ إلى المَسْحَبِ

صفائحُ بيضٌ جَلَتْها القيـو نُ مِمَا تُخَيِّرْنَ مـن يثربِ (72)

وليست هناك صفات شكلية في هاشمياته يصف بها آل البيت مما يلقي الضوء على اجتماع الحسن كله في هذه الصفة "البياض" في المرأة والرجل على السواء ، ولعل من شعر نظرائه – جاهلية وإسلاما – مايجلو ذلك على سبيل المثال لاالحصر في قول عروة بن أُذَيْنَة:

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقَّها وأجلَّها (73)

أما عن الصفات المعنوية التي وصف بها آل البيت فهي محصورة في أمرين :

صفات كانت منتشرة في الجاهلية ومحمودة ، وأخرى أحدثها الإسلام ؛ فنجد في الهاشميات أعلى نسبة للمدح في جانب الحسب والنسب ، والنظر إليه حين يقول في هاشميته الأولى :

غالِبيينَ هاشِميينَ في العـلْـ ـمِ رَبَوْا من عَطِيَّةِ العَـــلَّام

وَمُصَفَّيْنَ في المَنَاسِبِ مَحْضِيـ ـنَ خِضَمّينَ كالقُرُومِ السَّوامِي (74)

وفي الفلك نفسه الدائر حول علو الحسب والنسب يأتي قوله عن النبي – صلى الله عليه وسلم – :

طيب الأصل طيب العود في البنْـــية والفرع يثربي تهامي

أَبْطَحِيٌّ بمكةَ اسْـتَثْقَبَ اللـــ ـــهُ ضياءَ العمى بهِ والظَّـلامِ (75)

فهنا تلك الشجرة الطيبة التي طالما تباهى بها ، وترد في أكثر من موضع ، وهاهو يفخر في موضع ثالث بالصفات السابقة كلها :

أناسٌ بهم عَـزَّت قـريـشٌ فأصبحوا وفيهِم خِبَاءُ المَكْرُمَاتِ المُطَنَّـبُ

مُصَفُّوْن في الأحسابِ مَحْضُونَ نَجْرُهم هُمُ المحضُ منا والصريحُ المهذَّبُ

خِضَمُّـونَ أشرافٌ لهـاميمُ سادةٌ مطاعيمُ أيسارٌ إذا الناسُ أَجْـدَبُوا (76)

ويأتي المعنى نفسه في قصيدة تالية ؛ فهو مصفّى ، مهذَّب ، محض ... وكلها صفات مكرورة لايسأم منها الكميت أبدا ؛ ولننظر إليه يقول :

أنت المُصَفّى المهذّبُ المحضُ في الـ نسْبةِ إن نصّ قومـكَ النَّسَبُ (77)

ولم ينس الكميت أن ينسب النبي إلى " كرم الأَرُومة" ، و"طِيب المَحْتَد" ، وقد وردت في مواضع كثيرة من مديحه :

أكرمُ عِيدانِـنا وأطـيبُها عودُك عودُ النُضارِ لاالغَرَبُ

مابيْنَ حواءَ إنْ نُسِبَتْ إلى آمنةَ اعْتَمَّ نبتُك الهَـــذَبُ (78)

وترد كلمة الحسب كما وردت أختها "النسب" فيما مضى من أبيات حيث يقول :

نفْسِي فَدَتْ أعظُمًا تَضَمَّنَها قبرُك فيه العفافُ والحَسَبُ (79)

وأخيرا وفي هاشميته السادسة يطالب أن يسوس الأمة هاشمي يحييها ، ويكون لها ربيعا :

بمَرْضِيّ السِّياسَة هاشِمِيّ يكونُ حَيَا لأمتِهِ ربيعَا (80)

وإذا ذهبنا للصفات المعنوية الأخلاقية التي مدح بها آل البيت – وهي في عمومها تنتمي إلى الجاهلية لوجدنا صفة "الكرم" التي ذكرها صريحة في أبياته ، أو كنّى بها كما هو الحال في مثل هذا البيت :

والبُحُورِ التي بها تُكْشَفُ الحِرَّ ةُ والداءُ من غَليلِ الأُوَامِ (81)

وتأتي لفظة "الندى" في سياق مدح بني هاشم ، مصحوبة ب"العدل" في قوله :

للقريبينَ من ندى والبعيدينَ مِن الجَوْرِ في عُرَى الأحكامِ (82)

ويتصفون ب"الأريحية" ، و"الأريحي" هو السخي الذي يرتاح للمعروف وذلك قوله :

أَبْطَحِيّيْن أَرْيَحِيّيْنَ كالأنـْ ـجُمِ ذاتِ الرجومِ والأعْـلامِ (83)

ويعبر عن الكرم بكناية معروفة هي :

بَسَطُوا أيدي النَّوالِ وكَفُّوا أيديَ البغْيِ عنهُمُ والعُرَامِ (84)

ومن النوال – أيضا – يشتق اسم الفاعل "نائلا" بمعنى "منيلا" في قوله :

لقد غيّبوا بِرا وصِدقا ونَائِلا عشيةَ واراكَ الصَّفيحُ المُنَصَّبُ(85)

وهم مطاعيمُ أيسار إذا الناس أجدبوا في قوله :

خضمُـوّن أشرافٌ لهاميمُ سادةٌ مطاعيمُ أيسارٌ إذا النّاس أجدبُوا (86)

والكرم يطلب وقت الشدة والجدب لاوقت اليسار والرخاء ، كما هو الحال لدى عروة بن الورد ، وحاتم الطائي ؛ فنرى الكميت يصفهم بالسماحة والكرم في قوله :

مساميحُ منهُم قائلونَ وفاعلٌ وسباقُ غاياتً إلى الخيرِ مُسْهِبُ (87)

ومن الجماعي في وصف الكرم إلى الفردي في مدح الحسن بن علي :

وحزمٌ وجودٌ في عفافٍ ونائلٍ إلى منصبٍ مامثْله كان مَنْصِبُ (88)

ومن الفردي إلى الجماعي في صفة الكرم :

إن نزلوا فالــــغيوثُ باكرَةٌ والأُسْـدُ أُسْـدُ العرينِ إنْ رَكِـبُوا(89)

وتتكرر لفظة الغيوث في أواخر هاشمياته ، ومعها الندى في قوله :

فإنـَّهم للنـاس فيما يَنـُوبُهم غُيوثُ حَيَا يَنْفي به المَحْلُ مُمْحِلُ
وإنهم للناس فيما ينوبـُهم أَكُفٌّ نَدَى تُجْدي عليهم وتُفْضِـلُ (90)

ونجده يكرر ألفاظه في الدلالة على الكرم في قوله "مساميح بيض" ، وقوله " وهم الأكرمون " "مساميح بيض كرام الجدود " ، و"بني هاشم فهم الأكرمون " .

وهم "مطاعيم" ، و"أكارم غر" ، "ومقاري للضيف " ، وبحرهم "مورد للضيف" ، وذلك على النحو الآتي :

مطاعيمُ حينَ تَرُوحُ الشَّمَالُ بِشَفَّانَ قِطْقِطِهَا الأَشْـهَبُ
أكارمُ غُـرٌّ حسانُ الوجوهِ مطاعيمُ للطَّارقِ الأَجْنَبِ
مَقَارِيُ للضيفِ تحتَ الظَّلامِ مَوَارِيُ للقَـادِحِ المُثْـقِبِ
وردتُ مياهَـهـم صـَـادِيـا بِحَـائِمَةٍ وِرْدَ مُسْتَعْـذِبِ
أناسٌ إذا وَرَدَّتَ بَحْـرَهُم صَوَادي الغَرَائِبِ لم تُضْرَبِ(91)

ومن الطبيعي جدا أن يوصف قوم بمثل ماوصف به آل النبي ألا يخلو المعجم الشعري لمادحهم– وهو الكميت– من وصفهم بالشجاعة ، وما أدراك ما الشجاعة ؟ وما قاموسها اللغوي ؟ إذن فلنقترب منه ونرى : أسد الوغى ، وأسد الحرب ، والذادة عن الخرد ، والمدرعين بدروع الحرب ، والمغاوير ... إلى آخر الحقل الدلالي للشجاعة ، ولنقرأ له قوله :

فَهُمُ الأُسْدُ في الوَغَى لااللَّواتي بينَ خِيْسِ العَرينِ والآجـامِ
أُسْدُ حربٍ غُيوثُ جدبٍ بَهَـالِيْـ ـلُ مقـاويلُ غيرُ ما أَفْـدَامِ

.....

ومَغاييـــرَ عندهنَّ مَغاوِيـْ ـرَ مساعيرَ ليـلةَ الإِلْجَـامِ
لامعازيلَ في الحربِ تنـَـابيـ ـلَ ولارائمينَ بَوَّ اهْتِضَـامِ (92)

وغالبا ما تأتي صفة الشجاعة ، وما يدل عليها مع الكرم ، والحماية للجار ، وحماية الخرد الحسان ، وهي كلها صفات جاهلية لاجديد فيها ؛ إذ طالما مُدِح الممدوحون بها في الجاهلية .

ومن الصفات التي لاغنى عنها للممدوح في جاهليته ، وإسلامه ، وأن يكون مقولا ، وأن يطبق المفصل ، وأن يفحم الخصم ببلاغته وبيانه مصداقا لقول زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم (93)

وها نحن معه في أوصافه لهم من الحقل الدلالي "البلاغة" ؛ فهم مصيبون حين يخطئ الناس، وليسوا بمهاذير في الندى ، ولايصْمتون بالإفحام ، بل هم من يُصمت الناس ، ولديهم الإجابات المسكتة ، فنراه يقول :

والمُصِيبينَ بابَ ما أخطأَ النـَّا سُ ومُرْسِي قـواعـدِ الإسلامِ(94)

وفي تكراره للمعاني نجد الألفاظ السابقة نفسها فيما يسبغه على بني هاشم من صفات منها قوله :

أُسْدُ حَرْبٍ غُيوثُ جدبٍ بَهَالِيـ ـلُ مقاويلُ غيرُ ما أفْـدامِ

لامَهاذيرَ في النَّدِيّ مَكَـاثِيـ ـرَ ولامُصْمَتِينَ بالإفْحَـامِ (95)

وغالبا ما تتضافر مفردات الكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، والذود عن الجار في ضفيرة واحدة مسبوكة ، ومحبوكة في بيت واحد ، أو عدد من الأبيات يرفد بعضها بعضا :

فَضَلوا الناسَ في الحديثِ حديثا وقديمًـا في أولِ القُدَّامِ (96)

إذا فما أثبته الكميت – مما سبق – يصب في المعجم المدحي الجاهلي بجدارة حتى ليحار المرء؛ إذ يجد نسبة الصفات التي أثبتها الكميت للهاشميين من المعجم الإسلامي حيث الرحمة ، والرأفة، والطيبة ، والبر ، والصدق لم تكن غالبة على مدحه ؛ وإنما الغالب على مدحه ما سبق إثباته من كرم ، وشجاعة ، وغوث ، وحماية للجار ، إلى آخر ما أثبته لهم من صفات .

وإذا شئنا أن ندقق في المعجم الإسلامي الذي استقاه الكميت من الدين الجديد ممثلا في العمود الأول (القرآن) ، و(الثاني) وهو السنة النبوية المطهرة لوجدنا من الصفات المعنوية الإسلامية ما أثبته للهاشميين من الرحمة ، والعدل ، والرأفة ، والميل إلى الخير ، والعدول عن الظلم ، وأنهم أهل ثقة .. كما يرد في الأبيات الآتية :

للقريبينَ من ندى والبعيديـ ـنَ من الجَوْرِ في عُرَى الأحكـامِ

.....

لِكثيرينَ طيبينَ من النَّـــا سِ وبَرّين صادقـــينَ كـرامِ

فهم الأقربونَ من كـلِّ خيرٍ وهم الأبعــدونَ من كــلِّ ذامِ (97)

ولعل في ذكره الكثير لكلمة الخير مايدل أبلغ دلالة على سيرورة المفردة التي تأكد معناها بعد الإسلام ، وفصل بينها وبين نقيضها (الشر) ، وتوضحت معالم كل منهما ، والصفات التي تنتمي إلى معسكر (الخير) وتلك التي تنتمي إلى نظيره (الشر) . فكان طبيعيا أن تكثر في معجمه الإسلامي أكثر من غيرها مما يتفرع عنها ومن ذلك :

كانَ مَيْتًا جنازةً خيرَ مَيْتٍ غَيَّبَتْهُ حــفائرُ الأقوامِ

خيرُ مُسْتَرْضَعٍ وخيرُ فطيمٍ وجَنـينٍ أُقِــرَ في الأَرْحَامِ

وغلامًا وناشِئًا ثم كَـهلًا خيرُ كَهْلٍ ونَاشِيءٍ وَغُلَامِ (98)

وفي معجم الخير أيضا :

كان أهلَ العفافِ والمجدِ والخيـ ـرِ ونقضِ الأمورِ والإبْرامِ (99)

والبر ، والصدق ، والنائل في مدح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

لقد غَيَّبوا بِرا وصِدقا ونَائِلا عشيةَ واراك الصفيحُ المُنَصَبُ (100)

ومن الألفاظ الجديدة لفظة (البركة) الإسلامية :

وبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناشِئا وبوركتَ عند الشَّيب إذ أنتَ أشْيَب

وبورِكَ قبرٌ أنتَ فيه وبورِكْتَ بــهِ ولــَه أهــلٌ لذلك يثرب (101)

و"الهدى" كذلك من المعاني الإسلامية :

رَضُوا بِخِلافِ المهتدينَ وفيهُمُ مخبأةٌ أخرى تُصانُ وتُحْجَبُ (102)

وصفات الخير ، والعفاف ، والجود كلها ، وكذلك في مدح الحسين نجد صفات الحزم ، والعفاف، والنائل ، والتأثر بالميراث الجاهلي في قوله " سباق غايات " :

وحزمٌ وجودٌ في عفافٍ ونائلٍ إلى منصبٍ ما مثْلُه كان مَنْصِبُ (103)

مساميحُ منهم قائلونَ وفاعلٌ وسباقُ غاياتٍ إلى الخيرِ مُسْهِبُ (104)

والمدح بالاتزان ، وعدم الجزع عند المصيبة ، وباللين ، وبالطيبة ، وبالرأفة ، والطهارة ، وهي كلها معان إسلامية حض عليها الدين ، وحث عليها :

لاهمْ مفاريحُ عند نَوْبَتِهِم ولا مجازيعُ إنْ هُمُ نُكِبُوا (105)

وهذا مثل قوله تعالى "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم" الحديد 23

والطيبونَ المُبَرَّؤون من الـ ـآفةِ والمُنْجِبُونَ والنُّجُبُ

والسَّالِمُونَ المُطَهَّرونَ من الـ عَيْبِ ورأسِ الرؤوسِ لا الذَّنبُ(106)

وهذا يشبه قوله تعالى :" إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا" الأحزاب 33 .

ويأتي – أيضا – تمييز الحق من الباطل ، وقيمة الحق قيمة إسلامية يأتي معها الحلم ، والعقل ، والحكمة :

والعارفو الحقِّ للمُـــدِلّ بـهِ والمستقلو كثيرِ ما وَهَبُوا(107)

والمُحْرِزو السَّبق في مواطنَ لاتَجْـ ـعَلُ غاياتِ أهلِها القَصَبُ

والكاشِفو المُفْظِعِ المُهِمّ إذا الـ تَـفَّ بتصديرِ أهلِها الحَقَبُ

لاشُهَـدٌ للخَـنَا ومَنْطِـقِه ولاعن الحِلْمِ والنهُّى غَيَبُ

بَرُّونَ سَرُّونَ فـــي خلائِقِـهم حلْفُ التُّقى والثناءُ والرَّغَبُ

إن أصدروا الأمرَ أصدروهُ معًا أو أَوْرَدُوا أَبْلَغوهُ ما قَرَبُوا (108)

وهم الحماة للخائف الذي يرتجي عفوهم وحمايتهم عرا ثقة ومصابيح هدى :

إلى الهاشميينَ البهاليلِ إنَّهُـم لخَائِفِنا الرَّاجـي ملاذٌ ومُـوْئِلُ

إلى أيِّ عَدْلٍ أم لأيَّـةِ سيـــرةٍ سواهم يَؤُمُ الظاعنُ المُتَـــرَحِّلُ

وفيهم نجومُ النَّاس والمُهْتدي بهم إذا الليلُ أمسى ، وهو بالناس أَلْيَلُ

وإنهم للناسِ فيما ينوبهـــم مصابيحُ تهدي من ضلالٍ ومَنْزِلُ (109)

وكما رأينا فقد ألقى فقر المعجم اللفظي في هاشميات الكميت بظلاله على الصورة الفنية فأتت الاستعارات ، والكنايات ، والتشبيهات محدودة ، فما ظنك بكلام أغلبه تقرير لحق الهاشميين في الخلافة ؟ وما ظنك بغرض وحيد في القصيدة الهاشمية ، وهو غرض المدح ؟

إن المتأمل المدقق يلحظ غلبة فن التشبيه على الصورة الفنية ، إذ يصف الشاعر – عادة – ممدوحه بكل صفات الندى ، والكرم ، والشجاعة ، وما إليها ، يعينه في ذلك من الأدوات البلاغية "التشبيه".

إن التقرير الذي اتخذه الكميت تكأة لأبياته في الهاشميات ، والنظرية التي ما فتئ يدافع عنها جعلتا الخيال شاحبا في أبياته ، والصورة الفنية تفتقر إلى التركيب ، وغلب عليها التكرار كما غلب على المعجم اللغوي ، فالبياض مثلا ومرادفه الوجه الواضح لانجد غيرها عند الشاعر صفة شكلية لآل البيت، والكرم ، وما ينبثق عنه من ألفاظ يغلب على صفاتهم المعنوية ....وهكذا

ثالثا :الحركة النقدية حول شعر الكميت بن زيد موضوعا وفنا :

أما الموضوع فقد نفى الدكتور أحمد محمد الحوفي "المديح" عن شعر الكميت في قوله :" وإذا فإن هاشميات الكميت ليست مدائح بالمعنى المتعارف عليه للمدح ؛ بل هي حجاج لهم ودفاع عن حقهم ، وحملة على بني أميّة ، وترويج للزيدية " (110)

ولست أدري كيف بنى أستاذنا الدكتور أحمد الحوفي حكمه على شعر الكميت بأنه ليس مدحا بالمعنى المتعارف عليه – كما ورد في مقولته السابقة – في مبحث صغير قوامه ست عشرة صفحة تناول فيه عددا من المباحث عن حياة الكميت ، وعقيدته الزيدية ، وفنه الشعري ، ونماذج من هذا الشعر (111)

إن المستقرئ لشعر الكميت – كما سلف في هذا البحث – يرى أن الكميت مدح آل البيت بالعديد من الصفات المادية ، والأخلاقية التي كان الجاهليون يمدحون بها كبراءهم ، واتصف بها آل

البيت حقا وصدقا من كرم ، وغوث ، وحماية للجار ، وغيرة على النساء ، وشهامة ، ونسب رفيع ، وأضاف إليها ما حض عليه الإسلام من صفات الخير ، والعدل ، والرأفة ، والرحمة ، والإصابة في الفهم ، والإصابة في القول ، .... وغير ذلك مما أثبته في هذا البحث استقراء ووصفا ، وتطبيقا ، فإن لم يكن كل ماسبق داخلا في باب المديح المتعارف عليه فمن أي باب يدخل ؟ وإلى أي فن يدرج ؟ هذه واحدة ، أما الثانية : ففي هذا البحث الاستقرائي التطبيقي أكثر ما قاله الكميت في مدح البيت الهاشمي بالصفات المادية ، والمعنوية ، وفيه معظم شعره الحجاجي في إثبات نظرية الزيدية في الخلافة الإسلامية وإن الناظر لنسبة الأبيات التي مدحهم بها إلى تلك التي احتج لهم فيها لوجد الأولى تتفوق كثيرا عليها من حيث العدد والنسبة .

ومن دون شك فإن مديح الكميت للبيت الهاشمي أصدق من مدح غيره المؤسس على الرغبة أو الرهبة ، منبعه إيمان عميق بحق آل البيت في الخلافة ، وما فعله الكميت هو إحاطة هذه العاطفة العميقة بإطار نظري من الحجاج العقلي المؤسس على ركيزتين :

الأولى : استعانته بآي الذكر الحكيم التي ذكرها أكثر من محلل لشعر الكميت وهي :

" إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " [الأحزاب 33]

" قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى " [الشورى 23]

"واعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل " [الأنفال 41]

أما الأدلة النظرية العقلية فقد دلل عليها د. شوقي ضيف ، والدكتور أحمد الحوفي ، والدكتور محمد فتوح أحمد بما لايخرج عن المنطق الذي يقضي بأحقية آل البيت النبوي في الخلافة تأسيسا على ما قاله الأمويون بأنهم ورثوا الخلافة لأنهم من قريش ، فإن كان ذلك كذلك فإن بني هاشم أحق منهم بهذا الإرث لأنهم الأقرب إلى الرسول ، وإذا كان الأمويون يدعون أن الأنبياء لاتورث فإن قبائل العرب – جميعا – من حقها أن تطالب بالخلافة ، وليس البيت الأموي وحده، ولكان الأنصار كذلك أولى بها ؛لأنهم أول من ناصر النبي وآزره.وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف :

" وعلى هذا النحو يتحول الشعر عند الكميت إلى تأليف حجج وصياغة أدلة ، وهذا معنى مانقوله من أن الهاشميات جديدة في اللغة العربية ، فالشعر فيها يتصل بمنابع عقلية جديدة،لاصلة بينها وبين المنابع العقلية القديمة التي نهل منها الشعراء ، فهي جدال في مسألة حادثة ، هي حق بني هاشم في الخلافة ، وتقدمهم في هذا الحق على بني أمية ، وهي تتخذ في إثبات هذا الحق نفس الطرق ، أو نفس الأدلة التي كان يتخذها واصل وأمثاله من المتكلمين حين يقرون مسألة ، فتراهم يستعينون بالنظر العقلي من جهة ، ونصوص القرآن الكريم من جهة ثانية ؛ ولهذا كنا نزعم أن الكميت تلميذ لهذه المدرسة ، وتلميذ لواصل ابن عطاء الذي اشتهر بقوة إقناعه خاصة "[112]

أما من حيث إجادته لفنه فقد اختلف الدارسون في ذلك فمنهم من يرى أنه لم يجدد كصاحبة البحث –هنا – ومنهم من رأى تجديده بارزا كالدكتور شوقي ضيف الذي قال بتجديد الكميت رغم اعترافه الصريح بأن ما أتى به الكميت لايعدو أن يكون تقريرا لحق آل البيت ، ونظرية صريحة للزيدية ؛ فنرى وصف الدكتور شوقي ضيف للكميت بأنه شخصية طريفة في قوله :

"إنه شخصية طريفة بين شعراء عصره ؛ إذ أخرج الشعر من أبوابه القديمة إلى باب جديد هو باب **التقرير** والاحتجاج للعلويين "[113]

وفي قوله كذلك ".... هاشميات الكميت إذن هي في حقيقتها **مقالة** الزيدية في العصر الأموي ، وهي من هذه الناحية تعد شيئا **طريفا** حقا " [114]

ثم يختم بحثه عن الكميت في كتابه " التطور والتجديد في الشعر الأموي " بإثبات التجديد للكميت في قوله :

"..... كانت الهاشميات تعد لونا أدبيا جديدا في تاريخ الشعر العربي " [115]

ويعلل لذلك في مقولة تكرر مضمونها كثيرا جدا في كتابه المشار إليه ومن أمثلتها :

" فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية؛ أما الكميت فإنه عمد عمدا إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر مستعينا بكل ماثقفه العقل العربي في العراق لهذا العصر من صور حجاج وجدال واستدلال "[116]

ولست أدري كيف يعد الدكتور شوقي ضيف **التقرير** ، **والنظرية** ، تجديدا في الشعر ؟ هذا من جانب ، ومن جانب ثان فإنه يحبذ التكرار في الشعر لأجل تأكيد العقيدة الزيدية !

إن "التقرير" ، و"النظرية" التي يثبتها الدكتور شوقي ضيف للكميت ترددت كثيرا جدا في كتابيه " العصر الإسلامي" ، و"التطور والتجديد في الشعر الأموي" [117] مايدعونا إلى النظر في "وظيفة الشعر" ، وفي دعائمه الأساس " التخييل " [118] الذي يدعو الشاعر إلى الابتكار في فنه ، وإلى الإجادة فيه ، وإلى نبذ المستهلك من الصور الفنية ، والمعجم اللفظي إلى الجديد ، وهذا كله لم يلتفت إليه الكميت كما أثبت البحث ؛ فمعجمه فقير– في المدحة الهاشمية – ، مستوحى من القدماء في معظمه ، وصوره الفنية غالب عليها "**التشبيه**" اللصيق بغرض المدح عموما .

وهل خروج الشاعر من رحابة فن الشعر ، ورحابة التخييل ، وسعة المعجم اللغوي يعد تجديدا ، وإضافة ، وقد أهدر تجويد هذا الفن ؟ وهل المطلوب من الشاعر أن يظل مكررا ما قاله حتى تثبت العقيدة الزيدية في النفوس – وهو ماحبّذه الدكتور شوقي ضيف – فيبدو كالمعلم الذي يكرر دروسه ؟ ولاعجب في ذلك فقد كان الكميت معلما حقا . وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف في سياق حديثه عن تكرار الكميت لصفات الإمام العالم ، الزاهد ، والشجاع ، والسخي :

" فالكميت لايمل تكرارها ، بل دائما يبدئ ويعيد فيها ، ووتوالى هذه الصفات في هاشميات الكميت ويظنها من لايعرف حقيقة مذهبه أنها تكرار وخطابة ، وهي نظرية الزيدية يذيعها الكميت في الشعر لأول مرة ؛ فيطيل فيها ، ويكثر من ترادها ، حتى يثبت المذهب في نفوس أتباعه " [119]

فهل المطلوب من الشاعر أن يظل " مبدئا معيدا " ماقاله حتى تثبت العقيدة ؟ وهل هذا دوره المنوط به ؟ وهل غاية الشعر تناول المذاهب والنظريات ونظمها وترديدها تحت ذريعة تثبيت النظرية أو المذهب ؟

أسئلة لايعيرها الكميت التفاتا ؛لأنه دان بالالتزام تجاه مجتمعه الشيعي ؛ فأحب أن يكون شعره صدى لما يؤمن به وأن يكون مؤثرا في غيره بالحجاج ، والجدال حتى وإن دفعه ذلك إلى التكرار بالأدلة ذاتها ، وبالأسلوب عينه .

إن الكميت – كما ترى الباحثة – قد جنى على شعره ؛ إذ أضعف النثر والتكرار هاشمياته ، وماضره لو انتظر حتى تكتب نثرا في العصر العباسي فما خلق الشعر للتقرير ، والنظرية ، وما يصاحبهما من ألوان الحجاج ، والمنطق ، وما ضره لو نحا بها منحى فنيا تجديديا في الصورة ، والمعجم ، وسائر أدوات البناء ؟

ورغم قصر دراسة كل من الدكتور محمد الحوفي ، والدكتور محمد فتوح أحمد إلا أنهما لاحظا ما أُثْبِتُه – هنا – استقصاء وتطبيقا من عدم تجويد الكميت لشعره ، وطغيان النثر عليه ، وتكرار التقرير ، وضعف الخيال ، وفقر المعجم اللغوي . وفي ذلك يقول الدكتور الحوفي مخالفا رأي الدكتور شوقي ضيف :

" سبق الكميت الشعراء إلى المحاجة ، والمجادلة بالشعر في تأييد حق الهاشميين ، والتدليل عليه، بالقرآن وبالمنطق . وهو في هذا متأثر بطرائق المعتزلة في تفكيرهم ، واستدلالهم على آرائهم ، فقد عرفنا صلته بزيد بن علي زعيم الزيدية ، وعرفنا أن زيدا والزيدية كلهم كانوا متأثرين بواصل بن عطاء ؛ ولهذا كان الجاحظ على الصواب في قوله : ما فتح للشيعة بابا في الحجاج إلا الكميت ، وهذا هو سبب أنه لم يكن يفْتنّ في شعره ، ولم يُفوِّفْه بألوان من الخيال كما يفعل الشعراء ، وإنما كان يسوق أفكاره مساق المتحدث الجدل ، ومن هنا وصفه بعض النقاد بأنه خطيب لاشاعر" (120)

خاتمة البحث

وبعد ؛ فهذا بحث تطبيقي يعتمد الاستقراء طريقا لإثبات عدد من النتائج التي توصل إليها خاصة في قسمه الثاني الذي غلب عليه تقييم شعر الكميت بن زيد الأسدي فنيا لبيان أثر مبدأ الالتزام فيه .

ولقد اعتنى القسم الأول من البحث بالتعريف بالشاعر الأموي الكميت بن زيد الأسدي ، مع العناية بسرد شيء من سيرته ، ومذهبه الشيعي الزيدي ، وآراء النقاد القدماء فيه كالجاحظ ، وابن قتيبة ، والأصمعي . كما اعتنى بالتعريف اليسير بالشيعة ، وفرقهم المختلفة، وبيان موقع الشيعة الزيدية منهم ، وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين ، كما عرّف بالقصائد الهاشمية للكميت وبيَّن كيف نذر الكميت نفسه لمدح آل البيت النبوي ، وإثبات حقهم المشروع في الخلافة وفقا للمذهب الزيدي الذي يقضي بأن من يصلح للإمامة لابد أن يكون فاطميا ، عالما ، زاهدا، سخيا ، مع عدم سب الشيخين أبي بكر ، وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – وبذلك تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وهو الإمام علي بن أبي طالب .

وقد سعى الكميت لإثبات هذا الحق في إطار عاطفي صرف أحيانا ، وفي إطار حجاجي موثق أحيانا أخرى ، وثالثة بذم بني أمية أعداء الشيعة ومغتصبي حقهم الشرعي ، كما يرى الكميت و الشيعة جميعا . وقد اعتنى البحث ببيان ذلك عبر ثلاثة مباحث صغيرة اعتمدت على شعر الكميت نفسه من : مدح عاطفي خالص وفيه تتغلب العاطفة على الفكر ومسالكه ، ومدح حجاجي موثق بالأدلة من آي الذكر الحكيم تارة ، وتارة أخرى بطرق الحجاج العقلي التي راجت في عصره واقتفى فيها أثر إمامه زيد بن على بن الحسين حيث تابع واصل بن عطاء في أفكاره وطرقه في إعمال العقل ، وذم لبني أمية وبيان مثالبهم إلى مناقب أعدائهم آل البيت في مفارقة موثقة .

وقد غالى الكميت في إثبات نظريته بصور عدة من صور الاحتجاج العقلي مما حمل بعض النقاد الكبار، وبعض الشعراء على إخراجه من دائرة الشعر وإلحاقه بدائرة الخطابة ، بل نعى بعضهم عليه خطأه في استخدام تعابير لغوية معينة حيث نقلها من مجال البداوة كما هي مما أوقعه في مغامز عدة .

وقد عنى البحث بإثبات أن شعر الكميت يعد وثيقة اجتماعية ؛ حيث عرض الكميت لعادات القوم من تطير وتشاؤم وتعلق بالمرأة وغير ذلك من الأمور الحياتية في حلهم وترحالهم ، كما وجه

عنايته إلى إثبات أن شعره كذلك وثيقة تاريخية نقلت لنا حقائق التاريخ في فترة خصبة حفلت بالصراع السياسي ، والمذهبي ، كما بينت طرائق بني أمية في الحكم ، ورأي الشيعة فيهم ، وصراعهم مع الأحزاب السياسية ، ووجَّه البحث عنايته إلى اعتبار شعر الكميت وثيقة فكرية كذلك على طرائق الحجاج والاستدلال في عصره مما أوضح التزام الكميت بقضايا مجتمعه بل واهتمامه بالقضية الرئيسة التي قضى في سبيلها وهي حق بني هاشم في الخلافة فكان لزاما على الباحثة أن تبين الآثار التي تركها مبدأ الالتزام في شعره .

ومن هنا فقد قسّم الجزء الثاني من البحث إلى مباحث مهمة وجهت جُلّ عنايتها إلى : المطالع الهاشمية ، والغرض الرئيس منها وهو المدح .

فأما المطالع فقد ابتدع الكميت الخروج على مألوف الشعر العربي من تشبيب بالبيض الحسان ، ووقوف بالديار الخالية ، والآثار الدارسة ؛ فنراه يدخل في الغرض مباشرة – وهو مدح بني هاشم – وينفي نفيا قاطعا تعلقه بغيرهم . وقد اعتمد بنية النفي في معظم مطالع هاشمياته بعد أن استسلم فيها لتيار الشعر القديم في ذكر الصفات ذاتها والكنى عينها لكل ماورد في مطالعهم الطللية وكأنما أراد الكميت بذلك أمور منها :

أن يثبت قوة تلك المطالع وتمكنها من نفوس الشعراء غيره ؛ وبالتالي يثبت لنفسه انتصارا عليها وتحرره من سيطرتها ؛لأن تعلقه بغيرها وهواه لمن يستحق ذلك وهم آل البيت الهاشمي .

هدم النموذج الأنثوي المادي التقليدي وما يقترن به من وقوف بالعَرَصات ، والآثار الدارسة ليحل محله النموذج الأخلاقي المعنوي ويمثله آل البيت النبوي .

وهذا هو الجديد الذي أتى به الكميت في مطالع هاشمياته : نفي تعلقه بالنموذج المادي ، وإثبات تعلقه بالنموذج الأخلاقي جريا على السنن الإسلامي الذي جاء ليغير ويبدل من أخلاق القوم وعاداتهم .

وقد بين البحث وجود مستويين لغويين في المطالع :

الأول : مستوى بدوي مقلد للمعجم الجاهلي ، فالمرأة : مُعْصِرة ، ومُحَجَّبة ، وبيضاء ، ومخَضَّبة البنان ، وعطبول ، ....إلى آخر ما أورده من صفات .

الثاني : المستوى الحضرى المستقى من المعاني الإسلامية كالرحمة ، والرأفة ، والخير ، والحلم ... إلى آخر تلك المعاني التي أوصى بها الإسلام ، وحث عليها .

وقد أثبت البحث أن الكميت كان مقلدا غيَره من الفحول في المطالع الهاشمية في الصفات التي وصفوا بها المرأة ، ومع التقليد كان التكرار الممل للصفات ذاتها في إطار نفيه التعلقَ بالبيضاء العُطْبول ، والمخضبة البنان ، والواضحة الخدود كالآرام ... وغيرها من صفات ترددت في شعره .

وقد أتت تشبيهاته ، واستعاراته ، وكناياته في هذه المطالع تقليديةً ، وكيف يجدد وهو يرفض هذا النموذج المادي الذي استبدله بنموذج أخلاقي رفيع ؟

وفي غرضه الشعري الأساس وهو المدح انقسم مديحه لآل البيت إلى قسمين :

قسم مدحهم بصفات مادية ، وآخر مدحهم بصفات معنوية .

فأما الصفات المادية فلم يكد يخرج فيها عن صفة واحدة هي "البياض" يصرح بها تارة ، ويكني بها تارة أخرى فهم : بيض ، وغر ، وذوو وجوه واضحات ، وزهر ... وما إليها ، وقد قلد في هذا من سبقوه أيضا ، ولعل صفة البياض هي صفة السادة الغر الميامين ، بديلا عن السواد الذي هو ألصق بالعبودية .

أما صفاتهم المعنوية التي مدحهم بها فينتمي أغلبها إلى المعجم الجاهلي فهم : غيوث ، وبهاليل ، ومقاويل ، ورحماء ، وأسد حرب ، وفروع الأنام ... وغير ذلك من صفات فخر بها الجاهلي والإسلامي على السواء .

وغني عن الذكر أن الإسلام أبقى على الكثير من كريم المعاني والشيم التي كانت للعرب في جاهليتهم فلم يرسل الرسول إلا ليتمم مكارم أخلاق كانت موجودة ، وقد أوضح الكميت بعض المعاني في شعره مثل : الخير ، والرحمة ، والبركة ، والعفاف ، والشفاعة ، والبر ... وغير ذلك

من الركائز المهمة التي جلاها في آل البيت مبدئا ومعيدا لايمل تكرارها بالأساليب اللغوية ذاتها ، وبالصور الفنية عينها .

وقد ألقى فقر المعجم اللغوي في المدحة الهاشمية ظلاله على الصورة الفنية فجاءت الاستعارات، والكنايات ، والتشبيهات محدودة ، ومقلِّدة ، ومكرورة . وأتت الأساليب في صيغها الخبرية والإنشائية من نفي ، واستفهام ، وأمر ... في ثوب التقليد ؛ فما ظننا بشعر أغلبه تقرير لحق الهاشميين في الخلافة ؟ وما ظننا بغرض واحد في القصيدة الهاشمية ؟

ومن النتائج التي توصل إليها البحث كذلك تفوق فن التشبيه على ما عداه من فنون البيان الأخرى كالاستعارة ، والكناية ؛ وما ذاك إلا لعلاقته الطردية بغرض المدح ، لكن اللافت للانتباه أن معظم تشبيهاته كانت مفردة فلم يطورها لتكون لوحة كاملة – كما سبق أن بين البحث .

وفي التفاتة إلى رأي النقاد المعاصرين في الكميت وشعره ناقش البحث بعض آراء مشاهير النقاد كالدكتور شوقي ضيف ، والدكتور أحمد محمد الحوفي واتفق مع الدكتور الحوفي في رأيه الذي بينه في بحث صغير قوامه ست عشرة صفحة أن الكميت لم يعتن بتجويد فنه ، واختلف البحث مع الدكتور الحوفي في رأيه أن مديح الكميت لآل البيت لم يكن مدحا بالمعنى المعروف .

كما اختلفت الباحثة مع الدكتور شوقي ضيف الذي استحسن تكرار الكميت وعدَّه لونا من التجديد طبع بطوابع عقلية جديدة ، كما رأى البحث أن الشعر لايقوم على "التقرير"،و"التنظير" وهما المصطلحان اللذان شاعا في مقالي الدكتور شوقي ضيف في كتابيه " العصر الإسلامي " و" التطور والتجديد في الشعر الأموي " ، وناقشت الباحثة مبدأ الشعرية التي تقضي بأن يكون للتخييل أثر واضح في الشعر ؛ فعليه يقع عبء التجديد ، وتنقيح المعاني، واقتحام القديم، والانتخاب منه، ونبذ المستهلك ، وابتكار الصور الفنية الجديدة ؛ وهو ما خلا منه شعر الكميت؛ إذ طغت النثرية عليه ، ووسمه الاحتجاج بطابع الفكر طوال القصيدة ؛ فليس المراد من الشعر إثبات نظرية ، أو ترسيخ عقيدة في النفوس ، وإنما هذا من مجالات النثر ؛ ومن هنا فقد جنى

مبدأ الالتزام على شعر الكميت ؛ إذ جعله مرددا ، مكررا ، أو " مبديا ومعيدا " بتعبير الدكتور شوقي ضيف نفسه .

ومن هنا تتضح أهم الخطوط العريضة لنتائج هذا البحث الذي بين مايلي :

شعر الكميت وثيقة اجتماعية ، وتاريخية ، وفكرية .

التقليد ، والتكرار رغبة في إعلاء مبدأ الالتزام حد من التجديد في شعره .

غلب التشبيه على شعر الكميت نتيجة لعلاقته الطردية مع المدح على مستوى الصورة الفنية .

طغى النثر على شعره لغلبة المنطق عليه .

هدم الكميت النموذج الأنثوي التقليدي وما يصاحبه إعلاء لنموذج أخلاقي رفيع ؛ وبهذا يكون قد بلغ الغاية من التزامه .

هوامش البحث ومراجعه

1- " الشهرستاني " اسمه محمد بن عبد الكريم ، وكنيته : أبو الفتح بن أبي القاسم بن أبي بكر. ولم يشتهر أحد من آبائه بشيء يتميز به فنسب إلى بلده ، وصار معروفا بالشهرستاني . فهو عصامي الثقافة والشهرة . مقدمة كتاب " الملل والنحل : للإمام الشهرستاني : تخريج محمد فضل الله بدران : الطبعة الثانية : القسم الأول : القاهرة : الأنجلو المصرية : 1956 : ص4 .

2- المرجع السابق : ص 131 : 178 .

3- السابق : ص :131

4- السابق :ص138

5- السابق : الصفحة نفسها .

6- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم : للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي 429هـ : القاهرة : مكتبة ابن سينا : ص36

7- المرجع السابق : الصفحة نفسها .

8- السابق : الصفحة نفسها .

9- التطور والتجديد في الشعر الأموي : د. شوقي ضيف : القاهرة : دار المعارف : ط11: 2007 : ص268 .

10 –الشعر والشعراء لابن قتيبة 213– 276 هـ : تحقيق أحمد محمد شاكر :الجزء الثاني د.ت : ص581 .

11–الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، ت 384هـ : تحقيق محمد حسين شمس الدين : بيروت –لبنان : دار الكتب العلمية : ط1 : 1995 : ص227 .

12–المرجع السابق : الصفحة نفسها .

13–السابق : الصفحة نفسها .

14–السابق : الصفحة نفسها .

15–السابق : نفسها .

16–السابق : نفسها

17– السابق : 227 – 334

18– البيان والتبيين : أبو عمرو بن عثمان الجاحظ :تحقيق عبد السلام هارون : الجزء الثاني : القاهرة : الخانجي : ط7 : 1998 : ص45 .

19– المرجع السابق : ص46

20– شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي : تفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي : تحقيق الدكتور داود سلوم ، والدكتور نوري حمودي القيسي : عالم الكتب : بيروت – لبنان مكتبة النهضة العربية : ط2 : 1986 .

21– المصدر السابق : ص9 .

22– المصدر السابق : ص11–12 .

23– المصدر السابق :ص37

والقِسْم : النصيب مثل الشِرْب ، والقسم مصدرقَسَمْتُ . أَغْرَق في النزع : أي بالغ ومد إلى أقصاه . وطاش السهم يطيش طيشا : إذا عدل يمينا ويسارا ولم يقصد .

24- المصدر السابق : ص37-38

25- المصدر السابق .ص43 – 47.

26- المصدر السابق : ص12-13

وواحد الأحكام حكم ، والأحكام : كل أمر محكم . والحماة : جمع حام وهو الذاب عن الحُرَم والكفاة : جمع كاف . والضِرام : الوقود . والمَحْل : الجدب والقحط .

27 – المصدر السابق : ص 25-26 .

والعُرام : الجهل ، ورجل عارم : جاهل . وفرع القدامس : الشرف ، ورجل قدموس : أي شريف . والقُدَّام : القديم ، وفرع القدامس : أعلى الشرف .

28- العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف :..... يكمل المرجع

29 – شرح هاشميات الكميت : مصدر سبق : ص 110- 111.

30- المصدر السابق : ص28-29 ومعنى الأبيات أن الرسول شجرة طيبة الأصل ، والفرع . واستثقب الله جل اسمه بالنبي : أي أضاء وكشف العمى عن الأمة . والثاقب : المضيء . والفسيل : النخل الصغار والجمع فُسْلان .

31- المصدر السابق : ص31-32

المُسْجِح : الرفيق السهل ، ومنه فلان ذوخلق سجيح ، أي لين موطأ سهل . والمسيم : الراعي ، ويقال : أسام إبله أي أرسلها . تسوم : ترعى .وجرد السيف ..... أي قاتل المشركين تارة ، وقاتل الخوارج تارة ، وهم الذين أرادوا هدى الله فأخطأوه . وصرام يعني الحرب .

32- المصدر السابق : ص33 .

ووصي الوصي يعني الحسن بن علي عليهما السلام ، والوصي : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . والخطة : الخصلة التي تفرق بين الحق والباطل . ومردي الخصوم أي يرمى به .

33- المصدر السابق : ص 33

والقتيل هو الحسين بن علي عليهما السلام ، والطف : شاطئ الفرات ، والطغام : السفلة من الناس ، يقال رجل طغام وطغامة وقوم طغامة .

34- المصدر السابق : ص 35

35- المصدر السابق : ص35 .

36- المصدر السابق : ص 55-59 .

37- المصدر السابق : ص62-65 .

38- المصدر السابق : ص 195 .

39 – المصدر السابق : ص196

والخضارم : السادات ، والواحد خِضْرم ، والخضرم : البحر ، وإنما شبه السيد بالبحر لكثرة المنافع . ويصدع بالمثاني : أي ينفّذ ويتكلم ، وأبا الحسن هو علي بن أبي طالب .

40- المصدر السابق : ص 197.

وأصفاه بمعنى : اختاره . بما أعيا : بالذي أعيى من رفض ذكر علي بن أبي طالب ، فلم يذكره بخير ، وأعيى الذي أذاع عنه أن يكتم اختيار النبي وفضائله ، والمذيع الذي يشيع ذكره . والدوح : معظم أصل الشجرة ، والواحدة دوحة . أبان له : أي بيّن له . قال : " اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله " وقال " من كنت مولاه فعلي مولاه " .

41- المصدر السابق : ص23

ويقصد بالساسة آل البيت ، ويقارنهم بغيرهم .

42 – المصدر السابق : ص146

يقول هل من يجهل في رأيه متأمل ؟ أي هل ينظر الذي ترك الحق يرجع إليه ؟

43- المصدر السابق : ص147-148

وكلام النبيين يعني بني مروان يتكلمون بالحق ويأمرون به ، ويفعلون خلاف ذلك . ويقول : نحن راضون بالدنيا كأنها تقينا مانخافه من الموت ، والقتل ، أي نحبها ، ونعلم أنا سنموت ونقتل .

44- شرح هاشميات الكميت : مصدر سبق : ص151 -153.

يقول فتلك أمور الناس مهملة منتشرة لامدبر لها ، كالإبل المهملة التي لاقيم لها ، ولاراعي يحفظها . والبهل جمع باهل وهي التي لاصرار عليها من الإبل ، فلبنها مباح . وإنما يعني هشام بن عبد الملك آثر الدعة على النظر في دينه ، وأمر رعيته . كما آثر هذا المضيع تضيع إبله وغنمه بإهمالها . والمتمقمق الذي يرضع مرة بعد مرة وهو شبعان ، يقول : يمتلئ جوفه ، ولاتمتلئ عينه . والحُفَّل : الممتلئة لبنا . يقول : قد استرخت أخلاف المعيشة من طول مارضوعها وكانت حفلا : أي ممتلئة لبنا . ويقول : هو مصيب فيما يقول إذا كان على المنبر وإذا نزل خالف فعله ماتكلم . يعني هشاما . والأعواد : أراد بها المنبر ، ويروي : يوم ركوبه ، واللام في لما من صلة الموصول .

ويروى وهي تصيبه ، أيضا شبه الدنيا ومافيها بالأشياء أي يضرب الأمثال للدنيا في خطبته يعظ الناس ، وهو أحق بالوعظ لأنه يأكل ويشرب حراما ، في خلافته يضيع أمور الناس ، وقوله : هي تصيبه يعني الدنيا .

فياساستا : أراد ساسة الناس يعني القيام بأمورهم ، وهذا على وجه الهزء بهم ، وأفانين : أي ضروب الكلام ، والمقول : اللسان المتكلم البليغ . وأراد : ياساستاه فحذف الهاء . يقول للأمراء أجيبوا عما نسألكم . هاتوا ماعندكم من جواب . شرح الهاشميات ص ....- ...

45- المصدر السابق : ص161: 162.

وأزلوا من الزلل ، وأوحلوا من الوحل . كما ابتدع الرهبان : إن قال قائل كيف شبه الكميت بدعة الرهبان ببدعة بني أمية ، وبدعة الرهبان محمودة ، وبدعة بني أمية مذمومة قيل له : أراد البدعة فقط لأنهم غيروا ما أمر به الله ، وبدلوه .

كان رجل من الأزارقة يمشي بين النخل فأصاب تمرة فأكلها ، فلامه صاحبه ، فقال بأي شيء تستحل هذا ؟ ثم لقي اللائم رجلا فقتله ، فقال آكل التمرة : أنا أكلت التمرة فلمتني عليها ، فبأي شيء استحللت قتل الرجل ؟ والمتهدل المتدلي .

46- المصدر السابق : ص167 -170

والرزء والرزية المصيبة ، و" ما " صلة ، والمجلل : الجليل العام ، والمجلل : المعظم . يقول : لما غاب النبي لم يحفظوا له حقه في ولده ، ولم يخفروا ذمامه . ويعني بالمخذول : الحسين عليه السلام . خذلوه ، ولم يقاتلوا عنه .

وقوله : فياآخرا يعني هشام بن عبد الملك . سدى له الغي أول : يعني معاوية بن أبي سفيان . يصيب به الرامون عن قوس : يعني يزيد لعنه الله .

تهافت : تساقط وتتابع ، والأعزل : الذي لاسلاح معه ، ويعني عبيد الله بن الحر . يريد : واحد قد ركب الحسين بعداوة ، وآخر باك على الحق كيف خذله .

47- هاشميات الكميت . مصدر سبق . ص11،12 .

48- هاشميات الكميت .مصدر سبق.ص43.

49- المصدر السابق.ص44-45 " يقول لست ممن همه زجر الطير لأني جربت الأمور ويقال صاح الغراب ونعب فأما نعب فهو أن يمد عنقه للصوت ، وتعرض ثعلب أي أخذ يمينا وشمالا ، والسانح الذي يجيء من يسارك إلى يمينك ، وأهل الحجاز يتشاءمون بالسانح ، والبوارح من الظباء والطير ما تجيء من ميامنك إلى مياسرك .

50- السابق.ص 100 ، وآنَى بمعنى كيف ، يقول : من أين الطرب أتاك وغشيك ؟ و" آبك" أتاك ليلا ، يقول : إنما طربك إلى بني هاشم لاصبوة في صبا ، ولاريب أي لاريبة ، والطرب : الخفة من حزن وفرح جميعا . وفي البيت بعده يقول : هذا الذي غشيك لامن طلابك المحجبات ، والمعصر : التي دنا حيضها .

51- السابق.ص101 ، الدمن آثار الرماد وما سوِّد والواحدة دمنة ، والحقب جمع حقبة وهي السنة . يقول لم تتطربني حمول غدت مفارقة لي ولادمن وقفت بها أتذكر أهلها . وفي البيت بعده : الظؤار الأثافي الواحد ظئر مشبهة بالناقة ترأم ولد غيرها فكأن الأثافي ترأم بعضها بعضا ، وما للأثافي ركب أي أرجل .

52- السابق .ص110.

53- السابق .ص188 و189 الصبابة : رقة الشوق ، والأشيب : صاحب الشيب ، "وما أنت إلا يريد : ما أنت وذاك ، والخِلل : جفون السيوف والواحدة خِلّة ، أدلجت : تدلج إدلاجا إذا سارت من أول

الليل ، والإجل : الجماعة من البقر ويقال لجماعة الظباء إجْل ، والربرب الجماعة أيضا، والظاعنين الخارجين ، والظاعن الخارج ، والخليط المخالط لك .

54- التطور والتجديد في الشعر الأموي .د.شوقي ضيف. القاهرة : دار المعارف : الطبعة الحادية عشرة :2005 :ص286

55- هاشميات الكميت . مصدر سبق . ص200 والعطبول : حسنة العنق والجمع عطابيل ، وقوله متبول الذي تبله الحب أي أفسد قلبه والتبل الفساد ، والضل والضلال واحد والتضليل تفعيل منه ، ومعنى البيت الثالث : أي صارت الدار ملعبة للريح ينْخُلُ عليها التراب .

56- المصدر السابق . ص201 القيل ، والقال ، والطيب والطاب ، والذَّام والذّيم .

57- السابق .ص146-147 ، يقول : هل من يجهل في رأيه متأمل أي ينظر ، وهل الذي ترك الحق يرجع إليه ؟ والبيت بعده مستيقظون لدينهم فينتبهوا لأمر دينهم فيفتح عينيه من نومه ، والمتزمل الذي تزمل بثيابه ، والنعسة النومة ، وفيكشف جواب هل ، أي هل كانت الأمة تنام لسكونهم وإقرارهم على جور بني أمية .

58- السابق .ص202 .

59- شرح هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص195 ، والأرق السهاد ، ونفى طرد ، والهجوع النوم ، ويمتري يحتلب منها : من العين ، والجذل الفرح والخضارم السادات والواحد خِضْرَم والخضرم البحر وإنما شبه السيد بالبحر لكثرة المنافع .

60- السابق .ص43 .

61- السابق .ص45 .

62- السابق . ص43 .

63- السابق .ص11 .

64- السابق .ص43 .

65- السابق .ص188 .

66- السابق .ص188 .

67- السابق .ص200 .

68- السابق .ص22سادة جمع سيد ، وذادة جمع ذائد وهو الذي يذود ويحمي عن أهله ، والخُرَد الحسان جمع خريدة .

69- السابق .ص110.

70-السابق .ص121 و"زهر" بيض والواحد أزهر ، والواهي الضعيف ، وقديمهم أولهم ، والعطب الفساد . يقول : أولهم وآخرهم في الكرم والشجاعة .

71- السابق . ص190 "غُرٌ" جمع أغر وهم البيض ، و"الطارق" الذي يطرق ليلا ، والأجنب الغريب .

72- هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص193 و"الواضح" الأبيض المشرق ، والسحب والجر واحد والمَسْحَب الجر، والصفائح جمع صفيحة وهي النصل ، وجلتها القيون صقلتها ، والقيون الحدادون يريد صفاء خدودهم كصفاء السيوف الصقيلة .

73- شعر عرة بن أذينة . جمع وتحقيق د.يحيى الجبّوري . الكويت: دار القلم :1981:ص362

74- هاشميات الكميت .مصدر سبق . ص19"غالبيين" يعني أولاد غالب بن فهر بن مالك ، و"هاشميين" أولاد هاشم بن عبد مناف ، و"ربوا" نشئوا من قولك ربوت في حجره ، والعلام الله تبارك وتعالى ، و"مصَفِّين" من الدنس والدغل والشبه ، و"المحض" الخالص وهواللبن الذي ذهبت رغوته فلم يمزج بماء وخلص من القذى ، و"الخِضَمّ" السخي المعطاء ، و"القروم" الفحول والواحد قرم ، والسَّوامي الرافعة رؤوسها سامية .

75- المصدر السابق .ص28 "استثقب الله جل اسمه بالنبي أي أضاء وكشف العمى عن الأمة.

76- شرح هاشميات الكميت . مصدر سبق ص76 ، ويروي "وأصبحت" يعني قريشا ،"فأصبحوا" يعني بني هاشم يقول عزّت قريش برسول الله ، و"فيهم" يعني في بني هاشم . "خباء المكرمات المطنَب" :الممدود بالطنب وهو حبل الخيمة وجمعه أطناب . و"النجر" اللون والنجر الأصل ، والمحض الخالص ،و"مصْفَوْن" أي مبرأون من الدنس .و"خِضَمُّون" سادة الواحد خِضَم ، و"لهاميم" أيضا السادة والواحد لهموم ، وأجدبوا :قحطوا والجدب القحط ، وقوله "أيسار" أي يضربون بالقداح الواحد يَسَرٌ.

77- السابق .ص111 و"المهذب النقي من العيوب ، و"نصَّ" بيَّن ورفع ومنه المنصة ، ويقال نصصت الحديث إلى فلان أي رفعته .

78- السابق .ص112. و"النضار" أكرم العيدان وأصلبها وهو خير الخشب .... والغرب رخو لانفع فيه . وآمنة هي آمنة بنت وهب بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة والدة النبي . و"اعتم" طال وكثف . و"الهذب" الكثير الورق والغصون ليس بالمتجرد .

79- السابق .ص118،و128 والفروع الأعالي ، والشذب القشور ، والعضاه جمع عضه وهي شجرة مشوكة ، يقول : أنتم شجعان تغشون الحروب في كراتها .

80- السابق .ص199 " الحيا" الخصب .

81- السابق .ص15. و" الحرة" العطش ، و"الغلة" أيضا العطش ،و"الأوام" الحر من العطش.

82- السابق .ص12. وواحد الأحكام حكم ، والأحكام كل أمر محكم .

83- السابق .ص18. "الأريَحِيّ": السخي الذي يرتاح للمعروف ،و"الرجوم" : الكواكب التي يرجم بها .

84- السابق .ص25. النوال :العطاء ، والعُرام :الجهل .

85- السابق .ص62. أي غيبوا بدفنك برا وصادقا ، ورجل نائل وهو الذي ينيل الناس بمعروفه ، والصفيح الحجارة العراض على القبر ، والمُنَصَّبُ: المنصوب .

86- السابق .ص76."خِضَمُّون" سادة والواحد خضم ، ولهاميم أيضا سادة والواحد لهموم ، وأجدبوا قحطوا ، وقوله "أيسار" أي يضربون بالقداح الواحد يَسَر.

87- السابق .ص80. "مساميح" أجواد جمع مِسْمَح ،يقول :إذا قالوا شيئا فعلوه أي لايخلفون مواعيدهم ، و"مسهب" جواد .

88- السابق .ص84.يقال إنه في منصب صدق وفي نصاب صدق وفي محتد صدق ..... وإلى بمعنى مع .

89- السابق . ص120."العرين" الأجمة ويقال للأجمة الخدر والخيس ، أي هم في السلم يقرون الضيف فيقومون مقام الغيث للناس .....وإن كانوا في حرب دفعوا عن الحريم ومنعوا الضيم كالأسد تجمي عن الخيس بهمتها .

90- شرح هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص177.الحيا الخصب وهو مقصور ، والمحل القحط والجدب ، والممحل الذي دخل في المحل ،ينوبهم أي ينزل بهم من المحل والجدب ،يعني أنهم يغيثون الفقير ويعطون السائل . و"تجدي" أي تعطي ...و"تُفْضِل" أي معتادة على العطاء والجدا .

91- السابق .ص190-192. "الشَّفان" :الريح الباردة ،والقِطْقِطْ : البرد ، و"غر" جمع أغر وهو الأبيض ، والطارق الذي يطرق ليلا ، والأجنب الغريب ، الصادي العطشان ، والحائمة التي تدور حول الماء من العطش ، وقوله "ورد مستعذب" أي ورد طالب للماء العذب ، و"مقاري" جمع مقرى ، والقادح الذي يقدح النار ، و"المثقب" المضيء ، والصوادي العطاش والواجدة صادية ، والغرائب الإبل التي تدخل في إبل القوم وليست منهم فيحلبونها ويضربونها .

92- السابق .ص20-22."الوغى":الضجيج في الحرب ، والخيس الموضع الذي لايكون فيه إلا السبع ، والعرين الأجمة ولم يسمع له بجمع .يقول :هم الأسد في الحرب لأسود الغياض .ويقول إن ركبوا فهم كالأسود في الحرب ،يُتَّقون في الحرب جرأة وإقداما ، وإذا وهبوا فهم كالغيث عند القحط ، واخصب عند المحل . وبهاليل جمع بهلول وهو الضحوك ، وأفدام جمع فَدْم وهو الثقيل الغبي . و" مغايير" الواحد مغيار وهو الشديد الغيرة ، ومغاوير واحدهم مغوار من الغارة ."مساعير للحرب ": يوقدونها الواحد مسعار ومسعر .والمعازيل الذين لاسلاح معهم والواحد معزال ، والتنابيل :القصار الواحد تنبال .

93- شرح المعلقات العشر : القاضي أبوعبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني : بيروت. لبنان . منشورات مكتبة الحياة :1983 :ص154

94- هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص12."مرسي" مثبت ، والقواعد العمد الواحدة قاعدة .

95- السابق . ص21.سبق شرح البيت الأول ، أما الثاني فالمهاذير جمع مهذار وهو الكثير الكلام ، والنَّدِيُّ والنَّادي المجلس ، يقول لايتكلمون في المجلس ولايُصْمَتون أي يُسْكَتُون .

96- هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص16."القُدَّام" المتقدم .

97- السابق .ص 12-16-17-25 .

98-السابق .ص26-27

99- السابق .ص29 .

100- السابق .ص62 .

101- السابق.ص61.

102-السابق .ص70-79."المهتدين" يعني النبي وأهل بيته ، و" مخبّأة" خصلة قد خبؤوها عندهم لايظهرونها . والرتب جمع رتبة وهي المنزلة يستعلي بها أي يرتفع .

103- السابق . ص84 .

104- شرح هاشميات الكميت .مصدر سبق . .ص80 .

105-شرح هاشميات الكميت . مصدر سبق .ص120.و"النوبة " الدولة يعني الملك والسلطان ، ولاهم مجازيع إن نكبوا أي أصيبوا وأديل عليهم .

106- السابق : ص121."منجبون" يلدون النجباء وهم في أنفسهم نجب .ورأس القوم :رئيسهم.

107- السابق .ص122 .

108-السابق .ص123-125 ."الخنا"الكلام القبيح .والنُّهى جمع نهية وهي العقل ،وغَيَبُ جمع غائب ، ويقال :رجل بَرٌ سَر أي بارون سارون .وفي البيت الأخير يقول : إنهم حكماء يوردون في مواضع الورد ويصدرون في مواضع الصدر .

109- شرح هاشميات الكميت .مصدرسبق.ص174-178. والبهاليل جمع بهلول وهو الرجل الضحوك ، والموئل : الملاذ والبهاليل الظرفاء ، لخائفنا الراجي أي نخاف من بني أمية ونرجو بني هاشم .

110- أدب السياسة في العصر الأموي .الدكتور أحمد محمد الحوفي .القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر :الطبعة الخامسة :د.ت:ص489 .

111- المرجع السابق :ص 478-494 .

112- المرجع السابق ص490 و:

- **التطور والتجديد في الشعر الأموي .الدكتور شوقي ضيف .القاهرة :دار المعارف : ط ص277-279 .**
- **العصر الإسلامي .الدكتور شوقي ضيف :ص327 .**
- **الشعر الأموي .الدكتور محمد فتوح أحمد ص88**

113- التطور والتجديد في الشعر الأموي .الدكتور شوقي ضيف :مرجع سبق :ص280 .

114- المرجع السابق :ص276 .

115- السابق :288 .

116- السابق :ص291.

117- السابق .ص291

118- السابق : ص285-286 .

119- أدب السياسة في العصر الأموي .د.أحمد محمد الحوفي . مرجع سبق :ص489 .